ثورة عين

رواية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

طبعة ٢٠١٩

الهجين، أحمد فاروق

ثورة عين/ أحمد فاروق الهجين؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٢١٦ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٦ ٨٩٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

ثورة عين

رواية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/١٦٧٢٢

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٨٩٥-٦

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : ثورة عين

المؤلف : أحمد فاروق الهجين

الغلاف : عبدالله نصر

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

(١)

بيد ناحلة سمراء مرتعشة، نفرت منها بشكل عفوي عروق جافة مزرقة أوشكت على الفناء، شدت السيدة العجوز المحنية الظهر «أم الزين» قلة الماء الفخارية الموضوعة إلى إفريز النافذة الخشبية المتآكلة الحواف، وراحت تشرب بنهم بالغ؛ وتصب الماء صبًا على رأسها الملفوفة بطرحة سوداء من شدة الحر وهي تطلق من أعماقها تجشؤة طويلة، وتطلق كذلك سهام نظرات عينيها المطفأتين بعيدًا إلى خارج النافذة حيث كانت قبالتها مباشرة اللافتة الملطخة بالهباب وتراب الزمن والسنين والتي تحمل عنوان الحارة شبه المختفي، ومن كان يملك ذاكرة قوية فقط هو من كان يستطيع أن يقرأ هذه اللافتة الممسوخة ليس بعيني رأسه وإنما بعيني ذاكرته، حارة «المنسي» كان هذا هو اسم الحارة أو حارة المنسيين كما كان يحلو لربيع الابن الأصغر أن يطلق عليها، أما شقيقه الأكبر سليط فقد كان صوته المدوي الجهور يأتي من ناحية ميدان الموسكي شاقًا جدران العمائر الكالحة وأوراق الشجر المتساقطة إلى صواني أذني أمه العجوز، والتي راحت تلعنه باسمة وهي تعيد القلة إلى موضعها قائلة بلسان حالها:

- الله يلعنك يا سليط، الناس إن لم يشتروا منه حبًا في بضاعته فلسوف يشترون خوفًا من صوته الجهور ووجهه الكريه.

لم يكن سليط الابن المفضل لها، بل ربيع كان فتاها ورجلها والحبيب إلى نفسها وقلبها، وعيناها اللتان أصبحتا نافذتيها ترى من خلالهما دنياها المفقودة، أما الفتاة الجميلة سمر الوسطانية بين الولدين فلقد كانت هم أمها الكبير، والتي كادت ذات يوم بسبب فكرها الطائش وجريها وراء بهارج الدنيا ومظاهرها البراقة الخداعة؛ أن تذهب ضحية لأحد الشبان التافهين من أبناء الات، ولولا تدخل شقيقها ربيع لراحت ضحية جنونها، ولما قبل كريم رشدي الفتى المرفه المدلل الزواج منها والستر عليها رغمًا عن أنفه، ومن يوم أن تمت هذه الزيجة لم ير أحدُ سمرَ أو سمع عنها أي خبر، ليس لأن زوجها كان يمنعها من ذلك بل امتنعت الفتاة من تلقاء نفسها، فقد كانت تخجل دومًا من العيش في مثل هذه الحارة، بل امتد خجلها إلى أهلها أنفسهم، وكثيرًا ماكانت توجه لسان اللوم والسخرية إلى أمها البائسة الكفيفة قائلة: أن لماذا جئتي بيّ إلى هذه الدنيا، وإلى هذه العشة المقرفة، ولماذا لايوجد في عائلتنا كلها من نتشرف به، أو يكون سندًا وعونًا لنا ضد الشيطان الأعظم الفقر، وسرعان مابدت الفتاة تضمر وتذبل مثل أقحوانة أوشكت أن

تموت، ولكنها هزت رأسها ذات يوم ومصمصت شفتيها بعد تفكير عميق وقالت في نفسها: لقد كنت فاشلة دومًا حتى في الإقدام على الموت نفسه، والتخلص من حياتي إلى الأبد، وألا يجدر بالمرء أن يضع حلاً بديلاً لحياته البغيضة؟!.

ثم نظرت طويلاً ذات مرة إلى نفسها في المرآة، واستدارت بحرص وأوصدت باب الحجرة المتهالك عليها بإحكام، وشرعت تتجرد من ملابسها قطعة بعد قطعة، وراحت تتأمل في تقاسيم جسدها البض الإفعواني، وترسل خصلات شعرها السوداء الناعمة تارة إلى الأمام فينساب على نهديها كمَلَس من الحرير، وتارة أخرى تلف به طيرانًا حوالين نفسها على جناح الهواء ثم تتركه يهوى من عليائه إلى خاصرتها، ثم هزت رأسها وعلى شفتيها ابتسامة شيطانية وهي تقول في نفسها:

-أليس لهذا الجسد الجميل مريدين؟!.

وقبلت أن تعمل في لحظة طيش مدبرة مع أخيها البغيض سليط في التجارة لالشيء إلا لشراء الملابس العصرية الضيقة والقصيرة والمثيرة، وتحملت كثيرًا أنانيته وطول لسانه وسخافاته من أجل المضي قدمًا نحو هدفها، بل تمادت في تجريب نفسها مع البعض من شباب الموسكي والعتبة وشارع الجيش ووسط البلد، ولم يكن أي واحد من هؤلاء الشبان ليملأ عينيها قط؛

فقد كانت تراودها دائمًا أحلام وتطلعات لاحد لها، تلك الأحلام الدنيئة التي من أجلها دهست كل شيء في سبيلها؛ كرامتها، أخلاقها، إنسانيتها!.

وسرعان ما تحقق لها ما تمنته من كل قلبها، فها هي الظروف تجمعها مرة أخرى بمشيرة زميلتها من أيام المدرسة، كانت سمر تطيق العمى نفسه ولا تطيق هذه الفتاة بنت الحسب والنسب كما يقولون، والتي لعب الحظ لعبته الكبرى مع والدها التاجر وأصبح من كبار الأثرياء في منطقة مصر القديمة وحي الأزهر والحسين، ولكم كانت تغار منها بشدة، بل افتعلت معها العديد من المشاكل لا لشيء إلا لتمزق لها ملابسها الجميلة وحُليها وقلادتها النفيسة التي كانت لا تملك مثلها، الآن أصبحت مشيرة هدفًا لفتاة طموحة انتهازية ووصولية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وفي يوم عيد ميلادها والذي أقامته مشيرة في فندق ما من فنادق القاهرة الكبرى الفاخرة فوجئت بمن تطبع على خدها قبلة رقيقة للغاية، وتقدم لها في الوقت ذاته هدية ثمينة، وتهنئها بمناسبة عيد ميلادها، ولم تصدق مشيرة عيناها وهي تتطلع بدهشة إلى الفتاة سمر، والتي لم تكن كالفتاة المشاغبة الشرسة التي عرفتها من قبل، وبمهارة صائد متمرس سرعان ما ألقت سمر بشباك فتاة لعوب على

الشاب كريم شقيق زوج أخت مشيرة، والذي سرعان أيضًا ما سُحر بهذه الفتاة الجميلة الميساء، وانشغل بها أيما انشغال حتى وقع تمامًا في أحابيلها، في حين راحت سمر تلاطفه وتراوده عن نفسه ودون أن تجعله يمس شعرة واحدة من شعر رأسها، فجن بها الفتى ابن الات، وطار صوابه، وأضمر شيئًا ما في نفسه، هذا الشيء البغيض هو ما كانت تخطط له سمر بنفسها، ودفعت كريم دفعًا على التفكير بهذه الطريقة الحنونة، فلقد كانت واثقة من أن أمثال الشاب كريم البالغ الثراء لا ينالون أمثالها من طريق الزواج، بل من طريق المغامرة الطائشة الخاطفة ثم يفر هاربًا من أقرب نافذة بعد أن يكون قد نال كل مراده من الفتاة التي أعجبته، واضرمت نيران الرغبة الساقطة في نفسه، ولقد كان من بين ما خططت له أيضًا؛ الدفع في الوقت المناسب بأخيها الرجل طالب الجامعة الشهم الثائر دومًا ربيع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من شرف أخته المسكوب، وبمهارة وحذق شديدين راحت تصنع تفاصيل الموقف ببراعة متناهية، وتلملم خيوطه، وتحبك القصة كلها باقتدار لكي تخرج في نهايتها فائزة وقد ملكت زمام الأمور كلها في قبضة يدها، وبين ليلة وضحاها تحقق لها مرادها ونجحت خطتها على أكمل وجه، وانتقلت للعيش مع زوجها وأهله في فيلا فاخرة بالمقطم، وكم من مرة نظرت بعينيها الثائرتين من عل إلى أسفل وبصقت في وجه

الحيـاة القبيح،والتـي اسـتطاعت أن ترودهـا بحيلهـا الشـيطانية، ولـم تـزل بعـد علـى العهـد مـع شـيطانها فباتـت لاتدخـر جهـدًا مـن أجـل السـيطرة علـى زوجهـا كـريم الضعيـف الشـخصية، واحتوائـه تمامًـا بـكل أسـلحة الأنثـى النارية لكـي يحقـق لهـا بثرائـه الفاحـش ماحرمـت منـه طويـلاً، ومضـت الأيـام والشـهور ولـم تفكـر مـرة واحـدة في زيـارة أهلهـا وأمهـا المريضـة!، بـل كانـت تتكـر نفسـها بجفـاء بالـغ كلمـا حاولـت أمهـا «أم الزيـن» الاتصـال بهـا علـى هاتفهـا المحمـول، ووصـل الأمـر إلـى طريـق مسـدود يـوم افتعلـت مشـاجرة وهميـة مـع شـقيقها ربيـع، والـذي راح يذكرهـا بأمهـا الضريـرة، وأهلهـا وصديقاتهـا في الحـارة، فطلبـت منـه أن ينسـى الجميـع أمرهـا، وأنـه كانـت لهـم يومًـا مـا ابنـة أو صاحبـة تدعـى سـمر.

انصـرف ربيـع عائـدًا إلـى حـارة المنسـي والدمـوع تمـلأ عينيـه وهـو يـردد في سـره: «سـمر ماتـت، أجـل ماتـت»، ولكـن مـا إن رأى أمـه تهـل عليـه متعثـرة في خطواتهـا علـى أرض المنـزل الترابيـة حتـى تصنـع الابتسـام، وراح يهـش بيـده عفـرة الغبـار السـابح في فضـاء الـدار عـن وجههـا الجامـد، والتـي أحدثتهـا خطواتهـا المضطربـة وعصاتهـا الغليظـة التـي تتـوكأ عليهـا وقـال لهـا بنبـرة رقيقـة لـم تتمـرس علـى الكـذب مـن قبـل:

- سمر سافرت مع زوجها إلى الخارج، ولكن أعدك.....

وفي الحال قاطعته أم الزين قائلة وهي تحدق في لا شيء:

- ربيع لا تكذب عليَّ، سمر تخجل من أهلها الغلابة، من أمها العمياء ومن عكازها وفقرها.

- ومن حارة المنسيين كذلك.

قالها ربيع في سره وهو يخلع فردتي الحذاء من قدميه ويطوح بهما بعيدًا إلى آخر الغرفة، فيما كان يمد يده ساحبًا الطبلية ذات الحواف الخشبية المتآكلة من تحت السرير المتهالك، ونصبها في منتصف أرض الحجرة الترابية المغطاة بسجادة باهتة الحمرة من الكليم القديم، وفي خفة الظبي قفز خارجًا من الحجرة وعاد برقائق من العيش البتاو وبلاص به مش عتيق، وهتف بأمه قائلاً وهو يضحك وكأنما أراد أن يسري عنها:

- تعرفي يا أم الزين أَّن أحسنّ شيءٍ نفعله في الدنيا، أن نأخذ بلاص المش هذا، والعيش البتاو مع حزمتين من الجرجير والكراث والفجل، ونذهب بهم إلى سمر أختي في السراية حتى نشرفها بحق وحقيق.

- السراية !!؟، السراية الصفراء؛ الملعونة سوف يكون مصيرها في النهاية الجنون صدقني.

اعتدل ربيع في جلسته إلى الأرض، وقد لف راحة يده بكيس بلاستيكي، ثم راح يمررها من خلال فوهة البلاص الضيقة، ويخرج منها قطعة مفتتة من المش الأصفر الرائحة المنفرة وهو يقول متهكمًا:

- لقد انتهى عصر هذه الأشياء العجيبة التي نأكلها يا أمي، هناك اختراع اسمه اللحمة وفي رواية أخرى السيمون فيميه والكافيار ومالا نعلمه والله به أعلم، وبالطبع الناس الأكابر الذين يدهسون رؤوسنا بنعالهم اللامعة ليل نهار.

تنهدت أم الزين تنهيدة طويلة ولم تنبس ببنت شفه، وتركت العكاز يسقط من يدها جانبًا إلى الأرض، وارتمت أمام الطبلية تلملم ساقيها وأطراف جلابيتها السوداء تحت عظام مؤخرتها الناتئة، وقالت وهي تشد البلاص من يد ربيع والذي كان يتأهب لإخراج المزيد من المش من قلبه:

- كفي.

ومن غير اعتراض قام ربيع يعلق البلاص في زاوية الحائط كما كان، وكانت أم الزين تتابع خطواته وحركاته في المكان بأذنيها، ولما سمعت صوتًا خافتًا يشبه خرخرة الماء قالت باسترابة:

- ماذا تفعل؟.

- أخفف قليلاً من ملوحة المش ببضع قطرات من الزيت.

فمدت أم الزين قابضة بيدها على زجاجة الزيت التي يحملها ربيع وهي تقول بانزعاج جم:

- ولِمَ الإسراف.

وفجأة ترامى إلى أذنيها صوت أجش يأتي من ناحية الساحة الترابية الخارجية غير المسقوفة للدار وهو يقول بدهشة شديده:

- الفلاحون والصعايدة أنفسهم قد نسوا هذا القرف وأنتم مازلتم تأكلونه حتى الآن.

- تحشم يا ولد.

- حماتك تحبك هيا يا سليط مد يدك.

ضحك سليط ضحكة مدوية وارتمى إلى الكنبة البلدي الكائنة في زاوية ما من الحجرة، وراح يخرج قدميه من شبشبه الإسفنجي، وجعل يفرك أصابع قدمه المتسخة بإصبعي يده الإبهام والسبابة وهو يقول:

- وأنت الصادق حماتك التي تكرهك هي التي تقدم لك المش والبتاو.

- من حقك أن تقول أكثر من ذلك، لِمَ لا والنقود أصبحت تجرى في يديك مثل الأرز.

ضحك سليط ضحكة مدوية، ومال بجسده متكئًا على كوعه المسندة إلى الكنبة فيما كان يُخمس بكل كف يده الأخرى في وجه أخيه خشية الحسد وهو يقول:

- ومقام سيدنا الحسين الطاهر، أنت أكبر حمار رأيته في حياتي، وبدلاً من أن تجلس هكذا تلحس في قعر بلاص المش وتحسد في الناس، تعال وقف مع أخيك كالرجال، ولسوف أجعلك تأكل الشهد والبقلاوة.

- حد الله بينه وبينك يا سليط، ربيع قلبه طاهر ولا يعرف للحرام سكة، ابتعد عنه وإياك أن تقترب منه.

قالتها أم الزين وهي تلوك الطعام في فمها، ثم مدت يدها إلى القلة التي أحضرها ربيع للتو من ناحية النافذة ووضعها على الطبلية أمامها، وأخذت تشرب وتتجشأ تجشؤة كادت تخرج معها مصارينها:

- المش الله يحرقه حرق قلبك يا حاجة.

قالها سليط وهو يتطلع إليها ساخرًا، فيما نهضت أم الزين بعصبية وهي تتكئ على الشومة التي تتخذها عكازًا لها، ومضت خارجة من الغرفة وهي تتعوذ بالله من الشيطان

الرجيم وتحوقل وتحمدل، وعينا سليط تحملقان فيها بنفور واضح؛ والذي لم يدم صمته طويلاً وقال ببرود متناهٍ وهو يدير نظراته في المكان بقنوط شديد:

- بعيد عنك العجز خرف، هه أم الزين عمياء لا ترى شيئًا فهل أنت أعمى مثلها يا أستاذ ربيع، أخوك يمد يده لك بالخير وأنت ترفضها بكل جحود.

مضت فترة طويلة من الوقت ولم ينطق ربيع خلالها بكلمة واحدة، واكتفى فقط بالابتسام وهو يأكل ويسدد نظرة ذات مغزى لأخيه؛ والذي لم يطق صبرًا فهب واقفًا وهو يدنو من شقيقه، ويصرخ في وجهه صراخًا مكتومًا وهو في غاية الحذر من أن تسمعه أمهما وقال:

- وحياة أمك، بدلاً من هذه النظرة البلهاء وأكل المش المقرف اصغ ليّ ولو لمرة واحدة، وصدقني لن تندم.

وجعل يدنو منه أكثر فأكثر وقد ازداد صوته همسًا ومراودة:

- تعلم يا أخى كم أنا محتاج إليك، السوق وحش كبير يريد أن يفترس الجميع، وأنا أيضًا أعلم أنك في غاية الاحتياج للنقود كي تكمل في جامعتك وحياتك، والنقود معي كالأرز كما قلت أنت بنفسك فماذا تنتظر إذن؟!.

وغمز بعينه وهو لم يزل بعد مستطرداً في كلامه:

- وبنات الجامعة الجميلات الساحرات، والمدللات الشقيات لا يعجبهن العجب، فما بالك بالشاب المفلس الفقير، هه ينفرن منه وكأنه كلب جربان، قل ليّ بالله عليك كم يعطونك في محل الأسماك الذي تعمل به مجرد عامل توصيل أسماك مقلية ومشوية للمنازل بالدراجة النارية ودمتم.

واستمر سليط في مساومته لفترة طويلة حتى بلغ به اليأس من أخيه مبلغًا عظيمًا فختم حديثه قائلاً وقد أراد أن يستفزه بأية وسيلة:

- ربيع حذارٍ أن تلعب معي دور الرجل الشريف، بل أنت تلعب دور العبد في لعبة الأسياد والعبيد، انتبه لنفسك جيداً، وللفرصة التي تضيعها بكل غباء من بين يديك، فأنت في ناظري مجرد طفل أبله معتوه مازال يعتمد على سيدة مخرفة عجوز عمياء، وبلاص من المش الكريه الرائحة.

كانت كلمات سليط مستفزة بما فيه الكفاية؛ غير أن ربيع لم يكن من الذين يمكن استفزازهم بسهولة، وكانت لديه المقدرة على كبح جماح غضبه إلى أقصى حد يتصوره عقل، وقال بهدوء جم بعد أن أخذ رشفة ماء من القلة:

- نعم أحتاج للنقود ولكن ليس إلى نقودك أنت.

- في النهاية كلها نقود ودمتم.

أخرج سليط أثناء ذلك علبة معدنية للف السجائر الورقية ذات قداحة ذهبية، ولكن ربيع هز رأسه بالنفي وقد قبض بشدة على يدي أخيه لكي يمنعه من مواصلة لف سجائره التي يعرف مسبقًا أنها مشبوهة وغير بريئة، ثم هب واقفًا، واتجه إلى مائدة متهالكة قد تبعثرت فوقها بعشوائية مجموعة من الأوراق والكتب، انتشل إحداها وراح يقلب بيديه في صفحاته، وبعد قليل استدار ناحية أخيه وقال:

- سليط ياأخي الهمام في وسعك أنت أن تكون معي ومع أُمنا الضريرة، نحن نأكل المش ونشرب من القلة، وننام على الحصير ونلتحف بالسماء نعم؛ ولكن بالنا مرتاح، ولاشيء يقلقنا على الإطلاق.

- وأنا أيضًا لاشيء يقلقني على الإطلاق، ونقودي من جهدي وشقائي وعرق جبيني.

في هذه المرة لم ينطق ربيع ببنت شفة، وإنما دنا من سليط وحدجه بنظرة ما، نظرة كلها ريبة وشك واتهام، كانت نظرة صامتة عميقة، ولكنها حارقة ومعبقة بكثير من المعاني التي

تشي بحقيقة الواقع المخجل الذي يعيشه سليط منذ سنوات طويلة، والذي تلعثم وبح صوته فجأة وقد راح يسترسل في الحديث غير المرتب وكمن مسته نوبة من الهذيان، ثم صمت طويلاً وهو يحاول إزاحة نظرات أخيه عن عينيه الزائغتين وقال بصوت هدأت نبرته تمامًا هذه المرة:

- لوكانت أموالي حقًا من الحرام يا نابغة عصرك وأوانك كما تلمح فلِمَ لم تقبض عليّ الحكومة حتى الآن، هه هل علموك في المدارس أن تتهم الناس بالباطل هكذا؟!.

- رائحة فسادك فاحت ياسيدي الفاضل مثل كثيرين في هذا البلد الطيب، الكل يعرف أنك في الظاهر تاجر أقمشة وأجهزة كهربائية رديئة في الموسكي، أما الباطن فأنت أدري كثيرًا مني به.

لحظتها لم يتمالك سليط نفسه من الغضب وهجم كوحش كاسر على رقبة أخيه ربيع، وراح يمسكه من خناقه وهو يصرخ في وجهه بحدة، ويسبه ويلعنه ويتهمه بالكذب والخداع، وعلى جناح السرعة دخلت الأم إلى الحجرة وكأنها خفاش أعمى قفز فجأة من سماء الدار، وتقدمت وهي تتعثر في خطواتها وقد روعها صوت المعركة الدائرة بين الشقيقين، وراحت تمسك بسليط من تلابيبه، وتبصق عليه وهي تقول له بحدة بالغة:

- أُخرج أيها الشيطان الرجيم من حياتنا إلى الأبد.

كان نصل مديته الحادة المعدنية التي أشهرها في وجه أخيه ربيع يلتمع بشدة، على أثر ضوء مصباح الحارة الذي تسرب شعاعه من خلال نافذة الحجرة العالية لحظة الحلول الفجائي للظلام، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها سليط مطواته القرن غزال من جيب سرواله الخلفي، ولم تكن هذه هي أيضًا المرة الأولى التي يقف فيها ربيع بطوله الفارع حائلاً بين أخيه وبين أمه خشية من أن يصيبها سليط خطًا وهي وتدفعه دفعًا إلى خارج الدار، ولكنها كانت المرة الأولى التي أحس فيها ربيع أنه وشقيقه كولدي آدم، وتُسدد إليه نظرة نارية كارهة كادت ترديه أرضًا في لحظة ما من لحظات الزمان المتسارعة.

(٢)

لبنى فتاة لعوب غامضة، تسكن في ذات الحارة الضيقة الموبوءة التي لا تدخلها شمس ولا يخرج منها وباء، لا يعرف أحد على وجه اليقين من أين أتت ولا أين أهلها، وكان مجرد مرورها في الحارة يثير الريبة والمخاوف، وكان أيضًا هناك من يضمر الطمع سرًا في نفسه نحو أنوثتها الملتهبة.

كانت تعيش بمفردها حبيسة غرفتها الضيقة في كنف عالم افتراضي لا يراه أحد سواها، هي ذاتها أصبحت مع مرور الأيام قطعة من هذا العالم الافتراضي الذي يمكن للمرء أن يراه بعينيه ويعيش وراء أسواره ويتجول في فضاءاته السرمدية؛ ولكن لا يمكنه الإمساك به أبدًا، كذلك كانت لبنى تمنح لمن يشاء كل شيء وأي شيء ودون أن تُمس شعرة واحدة من شعور رأسها الناعمة والمصبوغة باللون الذهبي الفاتح، أمَّا في مقابل ماذا؟، فلقد كانت الإجابة على مثل هذا السؤال هو مثار حيرة أهل الحارة كلهم، والذين كانوا يراقبونها في غدوها ورواحها كلما خرجت من منزلها، والذي كانت لاتخرج منه إلاقليلاً وقد لفت جسدها الفتان بعباءة سوداء تجرجر وراءها على أرض الحارة القذرة، وتضع في الوقت ذاته طرحة لاتخفي كل شعيرات

رأسها الذهبية المسترسلة، تشترى لوازمها ثم تعود إلى الحارة بعد ساعتين أو أكثر ومعها صبيان يحملان لها أكياس كثيرة ممتلئة بالأغذية والفاكهة وزجاجات من البيرة الستيلا، كذلك كانت تمسك بحقيبة يد تختفي بداخلها الكثير من الملابس المثيرة اللانجيري، ومساحيق الوجه والأصباغ، وإن حاول أحد اعتراضها أو التحدث إليها بأية وسيلة كانت تجاهلته تمامًا، ومضت مسرعة في سبيلها، فلقد كانت لا تكلم أحدًا ولا تسمح لكائن من كان أن يتحدث إليها أبدًا، اللهم إلا هاتفها المحمول والذي كان لا يفارق أذنها إلا قليلاً، وذات مرة في وقت متأخر جدًا، تصادف وهي عائدة إلى الحارة ليلاً والناس نيام وجود كلب سعران يعوي بشدة أمام مدخل العمارة المتهالكة التي تقطن بها، فارتعدت وتراجعت إلى الوراء خوفًا منه، ولم تجد مع الكلب محاولات هشه بشتى الطرق من أمام باب البيت، وفجأة لمحت من بعيد شبح شاب منهمك في المذاكرة في كتاب بيده وهو يمد يده إلى إفريز النافذة المرتفعة عن أرض الحارة بمترين ونصف، والتقط القلة وشرع يشرب منها، فهتفت به أن يسعفها، كان هذا الشاب هو ربيع نفسه، والذي وضع الكتاب جانبًا، والتقط عصاة أمه الغليظة التي تتوكأ عليها، ثم أسرع قافزًا من النافذة برشاقة واتجه مباشرة ناحية الكلب وهو يقول للفتاة الشديدة الوجل:

- إرجعي أنت إلى الخلف.

- إنتبه إنه في غاية الوحشية.

- لاتخافي.

لم تكن عملية طرد هذا الكلب الضخم من الحارة بالأمر الهين فقد كان خطيرًا للغاية، وبعد فترة من الوقت استطاع ربيع بشجاعته وثباته أن يصرف الكلب بعيدًا إلى خارج الحارة، وودعه بضربة قوية من عصاته على مؤخرته فعوي الكلب سلسلة من العواءات المتكررة من فرط الألم وذهب إلى غير رجعة، ضحكت لبنى نشوانة وهرولت نحو ربيع تطمئن على يده التي كان يضعها تحت إبطه وهو يكز بأسنانه ألمًا على شفته السفلي:

- جرحك؟

- التوى رسغي ليس أكثر.

ابتسمت وهي تمسح بيدها الناعمة برفق على رسغه وقالت:

- لولاك لكنت اضطررت إلى المبيت حتى الصباح في الشارع بسبب هذا الكلب الشقي.

نظر إليها ربيع نظرة ما وقال:

- كلاب السكك التي تستحق الطرد كثيرة جدًا في هذه الأيام، ولا يجب أن تغيري طريقك بسبب كلب.

لأمر ما في نفس الفتاة ارتعدت بسبب هذا الإسقاط الذي تضمنته كلمات ربيع أو هكذا ظنت، وكذلك أوحت إليها نظرته التي كانت تحمل الكثير من المعانى، كلمات جعلتها تشعر بأنها قد جُردت وتكشفت عارية تمامًا من وراء أسوار عالمها السرى، فأسقط في يدها، ومن غير أن تنطق بكلمة واحدة ولت هاربة في اتجاه بيتها!.

كان ربيع لايعرف شيئًا عن الفتاة ولكن ألسنة أهل الحارة اللاذعة كانت تلوك في سيرتها كثيرًا، بل أمه نفسها سألته أكثر من مرة عن فتاة غامضة يتحدث عنها القالة في الحارة كثيرًا بالسوء، ربيع لم يأبه لأمر الفتاة طويلاً وعاد أدراجه لكي يكمل مذاكرته، غير أن صورة الفتاة لم تفارق ذهنه، فنحى الكتاب جانبًا، وارتمى بجسده الفارع في فراشه العتيق وشرد طويلاً في الفتاة، الشيء نفسه حدث للبنى التي عادت إلى منزلها للتو وقد زلزلتها كلمات الشاب ربيع القليلة، وتساءلت في نفسها هل يعرف هذا الشاب الشهم شيئًا عن حقيقتى المخجلة، وأننى أمارس نوعًا من أنواع الدعارة العصرية غير التقليدية مع

المتسكعين على المحمول وشبكة الإنترنت، وأن هناك من يدفع ليّ جيدًا في مقابل جسدى الذي منحته لأي طارق منحرف ومن غير أن يمسس عذريتي بشر، ومرت فترة من الزمن وهي شاردة في البحث عن أجوبة شافية لهذه الأسئلة وغيرها، وأحست أثناء ذلك بقشعريرة من الدفء تسرى في أوصالها وقد تذكرت يدها التي لامست يد هذا الشاب الذي لاتعرف عنه أي شيء أو حتى اسمه، ولكن صورته الجميلة التي كانت تراها بالكاد على ضوء مصباح الحارة الشاحب وطوله الفارع، وقوامه الرشيق، وريشة الليل الندية جعلته يبدو في ناظري خيالها كأحد فرسان ألف ليلة وليلة، ولعل أكثر ما أعجبها في هذا الفتي أنه لم ينظر إليها كأنثى متجردة في مخدع بل كإنسانة في مأزق، ولكن فجأة رن جرس هاتفها المحمول رنينًا متصلاً، فأفاقت من شرودها، وركبها الهم والغم وهي تنظر في شاشة الهاتف المضيئة، ونفخت بضيق متأففة وردت باقتضاب قائلة:

– لن أفتح كاميرتي الليلة أنا متعبة للغاية.

وراحت بافتعال مصطنع تسعل بشدة وتتأوه، ولكنها صمتت أمام سيل الشتائم والتهديدات التي تلقتها من المتصل على الطرف الآخر، مرت فترة بعد المكالمة المهينة التي تلقتها لبنى والتي جلست يائسة لاحول لها ولا قوة، ثم بعد قليل نهضت

وراحت تضع الأصباغ والمساحيق المبالغ فيها على وجهها، وفتحت خوان ملابسها العتيق وأخرجت من داخله رداءً فاضحًا فاقع الاحمرار وارتدته أمام مرآة التسريحة القديمة، وراحت تتأمل في نفسها بحسرة وهي تمرر يداها على ثنايا جسدها البض، ولكأن لسان حالها ينطق ويقول «آه لو أن لقلب صاحبة هذا الجسد الجميل حبيب»، ثم جلست إلى جهاز الحاسب الآلي وضبطت الكاميرا جيدًا عليها وبحيث تظهرها كلها من أم رأسها وحتى أخمص قدميها البيضاوين كالحليب، وسرعان ما نسيت كل شيء، وتجردت من كل أحاسيس الإنسان السوي، وانهمكت في عملها كفتاة بغى متعرية تمارس الفسق مع كل من يطلبها في غرفتها؛ ليست التي في منزلها ولكن الكائنة في العالم الافتراضي الخاص بملايين من الشاردين فيه.

(٣)

ذهب ربيع كعادته إلى كليته مبكرًا، وأخذ جانبًا بعيدًا عن زحام الطلبة وراح يستذكر في أوراق محاضراته، وبعد فترة وجيزة أفاق على يد هيثم صاحبه وهو يشد الأوراق من يده ضاحكًا وهو يقول له:

- أرح نفسك يا أخي، قلنا لك التعيين في أي كلية بالواسطة وليس بالمذاكرة.

شد ربيع أوراقه من يد هيثم وقال وهو يتنهد تنهيدة طويلة:

- ومن سمعك، الرشوة، الواسطة، المحسوبية والنفوذ، مثلث الرعب غير المقدس هو داؤنا الحقيقي في عالمنا الثالث، ولكنني سأحاول.

انفجر هيثم في الضحك وارتمى جالسًا إلى حافة الرصيف التي يجلس إليها ربيع وقال:

- هيا هيا عش على الأمل أيها الصبي المخدوع وأكمل مذاكرتك.

ثم استطرد ضاحكًا وهو يخشن في صوته ويقول بنبرة تمثيلية مثيرة للضحك:

- على المرء أن يحاول وليس عليه إدراك النجاح، هه عش على الأمل يا بني، ولكنى فقط أذكرك بأن هناك من يدركون النجاح ومن غير أن يحاولوا شيئًا من الأصل.

- على الأقل نتعلم شيئًا مفيدًا في حياتنا، ثم من قال لك يا أبله أنني أفكر في العمل في السلك الجامعي.

أطرق هيثم خفيف الظل برأسه اطراقة ما وراح ينظر لربيع بعينيه من تحت لتحت وكأنما لا يصدقه، فيما هم ربيع بالوقوف وهو يقول ونظرة ما تلتمع في عينيه:

- من حقي أن أفكر في أي شيء، أعمل في الجامعة، في الدبلوماسية، في أي مكان مادام المرء يملك المؤهلات لذلك، ولكن ليست هذه هي قضيتي.

- وماهي قضيتك إذن يا فتى؟.

قالها هيثم بسخرية وقد هب واقفًا هو الآخر قبالة ربيع مباشرة والذي لاحت على شفتيه ابتسامة عريضة وقال:

- كل ما في الأمر أنني أكره الأنانية.

- وأنا أيضًا أكره القلقاس.

ضحك الاثنان طويلاً ومضيا في سبيلهما إلى مدرج المحاضرات، وفجأة توقف ربيع وتطلع طويلاً إلى السماء التي اختفت الشمس من صفحتها تمامًا وغمرتها الغيوم السوداء، فعاد هيثم إلى ربيع وسأله بدهشة:

- لماذا توقفت هكذا فجأة؟!.

- منظر السماء بغيومها السوداء الكثيفة هكذا وهي تغطى بلدنا جعل قلبي ينقبض بشدة.

- بسيطة لا تنظر إليها، هيا يا عم بوذا ولا تضيع وقتنا في تأملاتك الفارغة.

كان هيثم من الشباب الذين يرون أن الحياة مجرد نكتة لا نملك حيالها شيئًا إلا الضحك ومجاراتها بالسخرية وليس بالعناد، وإنه علينا أن نضحك ونضحك حتى ننسى أن أتفه الأشياء في الحياة قد تبكينا وتؤلمنا طويلاً، ولقد كان كل من يعرف هيثم أو يتعامل معه يظن أنه لا توجد لديه أدنى مشكلة، وأنه ربما تكون مشكلته الحقيقية أنه بلا مشاكل، ولكن من قال إنه يوجد مخلوق على وجه البسيطة بلا مشاكل أو منغصات، ولهذا قال ربيع ذات مرة ساخرًا لهيثم صاحبه:

- أتصور أن ضحكك الكثير هكذا فلسفة تحاول أن تواجه بها أزمتك النفسية مع الحياة، لأنني لا أتصور مطلقًا أنه توجد حياة من غير مشاكل أو صراع.

يومها ضحك هيثم طويلاً، ولكنه صمت فجأة وقال بنبرة جادة هذه المرة وعلى غير المعتاد:

- الفرق بيني وبينك أن المشاكل تمر على أمثالي فيتجاهلونها، وإذا مرت بأمثالك أقاموا لها حفلة نكد، ولطم ومندبة، أنا أركب المشاكل يا بني أما أنت فالمشاكل هي التي تركبك.

لحظتها فكر ربيع مليًا وقد عزم على أن يرد ردًا ساحقًا على فلسفة صاحبه الساخر وقال:

- المهم إذا ركبت أنت المشاكل ألا تقودك هي للجنون، أما أنا فأقودها إذا ركبتني إلى ما أشاء.
- هذا إن استطعت أن تتحرك أصلاً من وطأتها أيها النكدي.

نظر هيثم بعيدًا إلى ناحية ما في اتجاه مجموعة من فتيات الجامعة الجميلات، أخذ نفسًا عميقًا وكأنما ليستنشق رائحة عبيرهن الذي حملته نسائم الصباح الرقيقة إلى الأنوف،

وبقبضة يده ضرب جانب كتف ربيع وهو يقول بحسرة ظاهرها وجه متجهم بافتعال وباطنها وجه ساخر لا يكف عن الابتسام:

- اللّه يلعنك أنت ومحمد علوان، لايأتي من ورائكما غير الهم والنكد والثرثرة فيما لاينفع ولايجعل الإنسان يتقدم خطوة واحدة للأمام، انظر إلى الكلام الحقيقي، السحر، الجمال، هيه ما أروعهن.

- آسف ياعم كيبوبيد، فهمت خطأً أن عقلك في رأسك وليس في نصفك.....

- عقلي في نصفي السفلي، العلوي، الأمر لن يفرق معي كثيرًا المهم أنني أفكر بالطريقة التي تريحني، وإذا كنت أنت فيلسوف الفقراء، والأخ محمد علوان فيلسوف النكد والتحريم، فأنا ولافخر فيلسوف الحريم.

ضحك ربيع طويلاً، وترك هيثم القللي يشق طريقه بين الفتيات اللائي كن يعشقن خفة ظله، وشقاوته التي تتجاوز كل حدود الأدب واللياقة في كثير من الأحيان.

كانت تقاطيب وجه الحياة الغاضبة تلوح في سمار محيا رحاب العوضي، لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لها منذ يومين اثنين فقط، كانت ذات وجه مشرق دائم الابتسام، وضحكات

فمها الرقيق تملأ الوجود وكأنها أوتار عود شرقي تتراقص على أنغامه خمائل الفل والياسمين، لمحها هيثم تتسلل خلسة من بعيد من وراء عباءتها السوداء التي تخفي كل شيء من أخمص قدميها وحتى أم رأسها، كانت هذه العباءة نفسها من يومين اثنين أيضًا مستترة في دياجير العدم، والآن أصبحت تصنع العدم نفسه، وتخفي وراء نسيجها الأسود الخشن تلافيف جسد الفتاة الأفعواني الممشوق والذي كانت تستعرض به أمام العالم كله، كانت فتاة فاتنة ورائعة الجمال بحق وحقيق.

لم يفكر ربيع طويلاً في التخمينات الكثيرة التي راح يطلقها هيثم وتأكيداته الرتيبة أن هذه العباءة المتحركة ليست إلا زميلتهم رحاب، بل سار في طريقه مثل السهم المتمرد، وكلمات هيثم الملتوية المخارج بلهجة صعيدية مفتعلة وضحكاته المستفزة تتخطى عتبة سمعه وهو يقول:

- الفاجرة وجعت في الخطية وإلا إيه عاد؟!!.

فظهر محمد علوان فجأة وكأنما الأرض قد انشقت عنه قائلاً وهو يضع يده على كتف هيثم:

- ولما لاتفترض أن الله قد هداها.

دفع هيثم ذراع محمد الملتف حول عنقه وقال:

- هدها ممكن، واسألني أنا الخبير العالمي في شئون المرأة، وفي شئون رحاب العوضي بصفة شخصية.....

- هس.

قالها محمد علوان وهو يضع أطراف أصابع يده على شفتي هيثم ليكتم صوته وكلماته العارية المتدفقة كشلال جارف من داخله.

كان صوت هيثم عاليًا ولكن ليس إلى درجة أن تسمعه الفتاة ذات العشرين ربيعًا وهي تصعد الدرج المؤدية إلى قاعة المحاضرات، كانت تسمعه وتسمع غيره بأحاسيسها المخدرة بفناء معاني الكلمات والشعارات الرنانة، تلك الشعارات التي كانت تفتتها يومًا ما، وسعت حثيثًا إلى التدثر بملاءتها الحريرية الناعمة، ملاءة كانت لافتة شعارات ساحرة ليس أكثر، لافتة كتب عليها بالخط العربي الديواني الجميل: «الشباب هم نور الحياة، ومن غير الشباب لا تكون الحياة حياة».

كان ربيع قد لفت نظرها أكثر من مرة إلى أن من يتقدمون لانتخابات مجلسي الشعب والشورى والمحليات أيضًا يتفننون في استقطاب سحرة الكلام؛ لكتابة مثل هذه الشعارات الرنانة التي

تخلب ألباب الناس وتفقد عقولهم الإحساس الحقيقي بمعاني الكلمات، وحقائق الأشخاص، وكانت لاتصدقه وتصنفه في طبقة الحاقدين على الموثرين والمشاهير، أما منذ يومين فقط فقد صدقت هذا الكب الأشر بكل جوارحها، وكذبت بكل ماتملكه من قدرة على الغضب «عزيز كمال الباشا»، والتي سعت بنفسها لتكون من بين أعضاء حملته الانتخابية، لم يخذلها الرجل، كان لطيفًا غاية اللطف معها، فتح لها أبواب دنياه الألماسية على مصاريعها، ولما تقدمت لتقتحم هذه الدنيا الجديدة الواسعة، وجدتها على سعتها ضيقة، مرتكزة في مستتقع أسن لإنسان لايرى أبعد من مسافة التلاصق التي كانت تفصل بينهما، كان يشدها إليه بقوة، وهي كانت تحاول الفرار من نفسها ولو بالتخلي عن جسدها ذاته، ولأمر ما وهي تفر هاربة كشعاع أثيري متخللة جدران العالم الشيطاني تذكرت طفولتها، وكلب قريتها المسعور والذي افترش سكة الزراعية مستترًا عن الأعين وراء الساقية، وقد بدا باسطًا ذراعيه فوق قطعة من اللحم النيئ التي سرقها من الجزار، وراح يغرز فيها أنيابه الحادة ومخالبه المدببة وهو يزووم ويطلق من عينيه الحمراوين أشعة الفتك الوحشية، وعندما التفتت إلى الوراء وهي تغادر المكان شاهدت الكلب ذاته ممدداً بجسده العاري العملاق فوق الفراش الوثير وهو ينهش في قطعة اللحم النيئة، وقد سال منه لعاب

الشهوة مخدرًا أحاسيس الحية اللعوب، والتي كانت لا تسمع لحظتها غير صوت مياه الساقية وهي تهدر مندفعة في الشق الأرضي، ثم تتسرب منتشرة في جداول جسدها المخدر النشوان، فانتفضت مذعورة وهي تقول في أعمق عمائقها:

- الفضيحة تنتفخ.

أحست رحاب وكأن العالم كله قد سمع صوت طغيان وساوسها المجنونة، وزفرات أنفاسها المكتومة، وهزهزات قلبها العشوائية التي كانت ترج أرض الوجود من تحتها رجًا مخيفًا، ورأت فجأة جدران قاعة المحاضرات قطعًا من المرايا العاكسة التي تعرض أمام العالم بأسره من أعماقها أسخن مشاهد العشق الإجباري، يوم تخلت عن جسدها، ويوم راحت تلملم أشلاء ذاتها المتناثرة على الطرقات تحت الأقدام، ومن طرف خفي راحت تمرر نظرة ما من وراء قطعة الشاش الشفافة السوداء التي تغطي عينيها إلى الفتى ربيع الجالس وحده في ركن منزو من القاعة المتلاشية الجدران، وهي لا تدري ما مغزى تلك النظرة، وأشرك نصبته الحياة لها أم شرك نصبته هي للحياة؟!!.

(٤)

في شارع جانبي تطغي على أنواره خفوت الظلمة الموحشة وقف ربيع إلى جانب دراجته البخارية، وقد هُيئت نفسه للانطلاق بين لحظة وأخرى لتوصيل الطلبات للزبائن، كان يطلق دخانًا كثيفًا من سيجارته في الهواء، أدخنتها المتصاعدة من أعماقه كانت تتراقص أمام عينيه الشاردتين مثل أشباح هلامية، غير أن الصوت الذي سمعه صادرًا من ناحية ما لم يكن وهمًا:

- أنت الإنسان الوحيد الذي كنت أمقته في الحياة.

كانت الصورة المنعكسة على خوذة الرأس اللامعة بضوء منسرب من بعيد، والكائنة على مقبض دراجته البخارية تشي بأن هناك من يقف وراءه مباشرة، فالتفت بسرعة ناحية مصدر الصوت والذي أردفت صاحبته قائلة:

- لأنك كنت تتحدث دائمًا من داخلي بذات الكلمات التي كانت تخاطبني بها نفسي.

فتمتم ربيع قائلاً وهو يديم النظر إلى صاحبة الصوت المستترة في عباءة فضفاضة أطرافها قبض أيدي ريح الليل العابثة والتي راحت تتطاير بها يمينًا ويسارًا:

- رحاب!!.

- أجل رحاب التي صمت أذنيها طويلاً عن سماع صوتك.

كانت الصورة وحدها كفيلة بأن تنطق جهرًا بكل الكلمات التي يحتويها عالم السر في خبيئته، وأن هذه الريفية البسيطة ما أسرع سقوطها أسفل عجلات قاطرة الحياة الباطشة، كانت مندفعة إلى الحياة بقوة جهلها بالحياة ذاتها، وكان ربيع يضمر شيئًا من الإعجاب لصاحبة هذا الوجه الريفي البريء والذي باتت تخفيه الآن خرقة بالية من الشاش الأسود، وكان من الطبيعي ألا يسألها عن التغيرات التي طرأت عليها فجأة بين ليلة وضحاها؛ فلقد كان صوت فضيحة الواقع داوية تصم الآذان، وحيث لا تصبح للأسئلة أهمية تذكر أمامها، سكت الفتى طويلاً، وألقى بإهمال هاتفه المحمول في وفاضه والذي يتلقى من خلاله طلبيات عملاء محل السمك الذي يعمل فيه، ومضى في رفقة الفتاة المطرقة عبر درب الليل الطويل، كان الريم الأملس والأضواء المبعثرة من هنا وهناك تعطي الطريق الهادئ لمعة سحرية، وكانت هي تتحدث بلا توقف بصوت مغسول بعبرات الألم المشوبة بالندم العميق:

- كنت أشاهد في قريتي أفلام الفتيات المخدوعات، وكنت أتعجب لأمرهن، وعندما جئت إلى القاهرة عذرتهن.

كانت السيارات الفارهة تمرق بسرعة في الطرقات الفسيحة والممتدة بلانهاية، وقد ترامت على مرمى الأفق صور الأبراج العالية مغيرة ظلال الواقع، ذلك الواقع الذي عرفته رحاب في قريتها بسيطًا وسلسًا من غير أن تشوبه تعقيدات الزمن بخطوطه الهمايونية، وأن الرداء البسيط الذي كانت تمضى مختالة به في طرقات بلدتها كملكة أسطورية أصبح مدعاة لنظرات التندر والسخرية تحت وطأة عيني العاصمة المتوحشة، نظرات تذيب جبال الثلج، وتجمد الدماء في العروق، توقفت رحاب فجأة عن السير، وأزاحت الغطاء الأسود الشفاف عن وجهها الذي ماتت ملاحته بالسكتة الإنسانية وقالت:

- عزيز الباشا رجل وسيم وكأنه حلم مجسد، حلو اللسان، ثري جدًا، لديه في كل قصر عالم أسطوري، غير شركاته ومصانعه، وبرامجه التي يقدمها على الشاشات الفضائية، وعندما تختفي فجأة كل نساء العالم عن عينيه إلا امرأة واحدة فماذا يكون شعورها في رأيك؟!.

ضحك ربيع طويلاً وهو يقول بسخرية:

- قصور، فضائيات، مصانع، شركات، وأموال وأعمال فوق طاقة التصور، ونساء العالم كلهن يختفين في لحظة واحدة عن

عينيه إلا أنتِ فماذا يكون شعوري في رأيي؟، أليس هذا هو سؤالك على وجه الدقة.

فأطرقت الفتاة إطراقة خجل طويلة ولكأنما تقول مجيبة سؤاله بملء الفم نعم، فقال ربيع وهو يتنهد تنهيدة طويلة للغاية:

- إنسان يفعل كل هذه الأشياء فهو لا يفعل شيء على الإطلاق، عزيز كمال ليس إلا أحد كبار المحتالين في بلدنا، دعك من طلته البهية، وبراءته المفتعلة، وكلماته المعسولة، فهذه ليست أيضًا إلا أدوات العمل التي لا يستطيع هواة النصب التحرك من دونها.
- ربيع الحق أنك حذرتني كثيرًا منه.
- لن أسألك ماذا أخذ الرجل منك أو ماذا أعطيتي له، بل ماذا تريدين مني؟.

فقالت بارتباك جلي لم يتبين الفتى مدى مصداقيته تمامًا:

- قل بالأحرى هو أخذ، وأنا لم أعطه شيئًا.
- الأمر عندي سيان، والكفتان متعادلتان على أية حال ولو كانت أحدهما راجحة على الأخرى، الذي يهمني هو أن أعرف ماذا تريدين مني بالضبط؟.

- ربيع أنت رجل شهم بمعنى الكلمة، والرجال حقًا فقط هم من يستطيعون استرداد الحقوق السليبة.

لم ينبس ربيع ببنت شفة وقد فهم من فوره طبيعة المهمة التي ألبسته الفتاة إيِّاها، وأنها قد اختارته دونًا عن الجميع وكأنها القدر في جبروته لكي يقف من أجلها على شريط القضبان الحديدية في سبيل قطار الطغيان عزيز كمال الباشا، ودامت فترة الصمت المملة طويلاً على لسان ربيع الذي لم يفه بكلمة واحدة، كانت رحاب تدنو لحظتها بشفتيها الجافتين من أذنه وهي تتمتم هامسة:

- أنا فتاة أقصد كنت فتاة وخدعت، والنطفة الكامنة في حشاياي لن أتخلى عنها بأي حال من الأحوال، لأنها دليل الإدانة الوحيد ضد عزيز الباشا وكل من هم على شاكلته من السفلة والمنحطين أخلاقيًا والذين يغررون بالفراشات البريئة مثلي.

امتد حبل الصمت بالفتى أكثر مما ينبغي، كان يفكر في طلب الفتاة منه، وأنها كما فهم بأحاسيسه المرهفة تدفعه دفعًا لكي يقف بمفرده في مواجهة إمبراطورية الشر عزيز الباشا، فأي هذيان هذا وأي غباء الذي يدفع بالمرء كي يحارب بعصاة مقشة مقلوبة جيش جرار من الرجال والأموال والسلطان والنفوذ وغيرها من الأشياء التي يمتلكها عزيز الباشا، ولقد كان من

اليسير على الفتى أن يمضي منصرفًا من أمام الفتاة ومن غير كلمة أو إيماءة اعتذار واحدة، وربما كانت صورة الوردة الحمراء البريئة تتراءي له في مخيلة الذاكرة العفية لحظتها، تلك الوردة التي أهدته إيِّاها يومًا ما الفتاة حسناء والتي شغفته حبًا منذ صباه، وعندما هم قافزًا إلى باب الأتوبيس الخلفي وهو يودع فتاته بنظرة سرمدية سقطت الوردة من يده، فقفز من غير تفكير من الأتوبيس المسرع ليلتقط وردته من تحت أقدام المارة والتي دهستها بلا رحمة، لم يحتمل الفتى وقتها رؤية البراءة وهي تغتال تحت شراك النعال القذرة، وقبل أن يكون جسده الناحل فداءً لهذه البراءة والمشاعر النبيلة والتي طوتها أوراق الوردة في ثناياها العميقة، ولم يأبه للأقدام الكثيرة التي دهست أصابع يده وهي تنتشل الوردة خلسة من على أرضية الطريق المبللة بأمطار الشتاء البائد، حزن ربيع كثيرًا على وردته الحسناء والتي ضاعت منه في زحام المدينة الصاخبة، وها هي ذي البراءة تسحق مرة أخرى أمام عينيه، البراءة المتدثرة بدماء العذرية، ولهذا تسمرت قدماه في الأرض طويلاً رغمًا عنه؛ وعن مشاعر الخوف الطبيعية التي راحت تنبئه بهبوب عاصفة المجهول الملبدة بكثير من المخاطر والأهوال.

كانت رحاب والتي أخفت وجهها مرة أخرى بالبرقع الأسود تند عنها نهنهة ترجرجت معها الكلمات وتفاصيل جسدها الطرية، وقد ضيقت عليها الريح الجنونية المندفعة عباءتها الفضفاضة، وحسرتها حتى الاختناق على جسدها شبه المكتنز، ثم راحت بالأطراف تطير وترتعش، وبمشقة بالغة تبينت لربيع معاني الكلمات التي راحت تنطق بها ولكأنما قد أخذتها نوبة من الهذاء وفقدان العقل:

- بدهى أن ضائعة مثلي لا يمكنها العودة إلى قريتها مرة أخرى لكونها قد أصبحت فتاة ساقطة إلى الأبد، لقد جن عقلي وشل تمامًا عن التفكير وأنا أفكر في حل أي حل لهذه الكارثة الرهيبة، والحقيقة أن أنوار العالم كله قد انطفأت في وجهي بشكل مقيت يدعو المرء لأن يفكر جديًا في الرحيل الأبدي من هنا، وأن يمضي إلى هناك؛ اللهم إلا ومضة خافتة برقت أمامي فجأة من بعيد، وكلما تقدمت متلهفة ناحيتها ازدادت بريقًا ولمعانًا.

سكتت الفتاة هنية ثم قالت وهي تضع أطراف أصابع يدها الرقيقة على كتف ربيع العالية:

- ربيع أنت هذه الومضة التي بقيت ليّ في الحياة.

وعند ذاك دوي صوت هيثم بكل معاني الصخب والاستخفاف الماجن بكل شيء في الوجود وهو يقول بنبرة مدمدمة:

- فسائل الأطفال ما أسهل أن نلقيها في المراحيض، والشرف والبكورية يمكن أن تشتري بحفنة زهيدة من النقود من على سور الصين العظيم، وفي طرفة عين ينهار التابوه المقدس بتابوه أعظم منه، ألا تصدقني البغي نفسها يمكنها أن تعود فتاة عذراء وتحفظ لتراثنا المتوارث ماء الوجه المنسكب على أرض الواقع، انصح فتاتك أيها الأبله أن تعيش مخادعة ولا تمت قديسة.

- حقير حقير حقير.

ظل ربيع يصرخ في وجه صاحبة المرتسم على صفحة الأفق الدامي، كانت رحاب مذهولة من هذا الصارخ في وجه الليل المعتم، ولكنها أحست أن الفتى يصارع بسببها خيالاته والهواجس التي سعَّرتها في أعماق نفسه، وقالت بذات النبرة الخفية التي لايستطيع المرء أن يتبين معالمها تمامًا:

- أنا فتاة فقيرة خاطئة ضائعة لاتملك المال، ولاتعرف شيئًا عن يومها حتى تعرف شيئًا عن غدها، ولكنني مازلت أحتفظ بشيء من الكرامة التي تجعلني لا أبدو متطفلة على أحد أكثر من ذلك.

قالتها ثم استدارت منصرفة، وعند الخطوة قبل الخامسة لحق بها ربيع ووقف قبالتها مباشرة وقال:

- أنا أيضًا إنسان مسحوق وعاجز وفقير مثلك لاأملك المال ولا الأمل، ولا القدرة على فعل أي شيء في الحياة، وحتى الفشل نفسه عندما حاولت أن أجربه فشلت.

- ربيع أريدك أن تكون بجانبي وألا تتخلى عني أبدًا.

- قلت ماقلته فقط حتى تعلمي حقيقة مَنْ تلجئين إليه.

أطرقت الفتاة طويلاً ثم أسفرت عن وجهها مرة أخرى وقالت وهي تُملِّس براحة يدها الناعمة على بطنها:

- ربيع لايمكنني العودة مرة أخرى إلى بيت المغتربات، القيء الدوخة والوحم وغيرها من مظاهر الحمل السري سوف تفضحني أمام سليطات اللسان.

صمت ربيع مليًّا ثم قال:

- ألا يمكننا التخلص بوسيلة ما من هذه أو هذا الذي.....

ولكن رحاب سارعت تسد فمه عن الاسترسال في حديثه بأطراف أصابع يدها، وقالت بلسان حالها ونيتها التي كانت

تطويها في نفسها بكل ما أوتيت من حيلة، وقدرة على الصبر المشوب بالصمت المؤقت:

- هذا أو هذه التي تتحدث عنها سوف أذهب بها إلى المحكمة يومًا ما لآخذ حقي كاملاً من هذا المجرم المدعو عزيز الباشا، وربما تنال أنت أيضًا نصيبك من هذه القضية التي سوف تهز الرأي العام في مصر كلها من أقصاها إلى أدناها، بل ربما الرأي العام العربي والعالمي أيضًا.

نظر كلاهما إلى بعضهما البعض طويلاً، ثم مضيا حثيثًا في أطواء الظلمة المتلاشية شيئًا فشيئًا، فلما كان النهار المعبق بهمسات الليل الخفية تسارت جنيات الصباح الشقيات خبر الفتى والفتاة، ورحن يُخمِّن آثار خطاهما الليلية التي مسحتها أيدي الريح العابثة، وفي أي اتجاه سارا؟!!.

(٥)

سار الفتى طويلاً في دروب ذاكرته الوعرة، الكثيرة التعاريج، والملونة بآثار من حلم قديم وكوابيس الواقع الدميم، وكانت رحاب الملفعة بالعباءة السوداء تمضي في رفقته خطوة بخطوة، وكان من المستحيل أن يذهب بها مباشرة إلى بيت أم الزين في حارة المنسي، أو إلى حجرة الاستراحة في محل السمك الذي يعمل فيه، وربما لاحت أمامه لوهلة صورة صاحبه هيثم، فمثل هذا الشقي سوف يقدم أقصى ما لديه من قدرة على الترحيب بفتاة الليل الكسيرة، ولكن ترى أي نوع آخر من الانكسار ينتظر الشيء المكسور، وهل تحتمل الفتاة المزيد من العابثين وطلاب المتعة العابرة، وممن لا يرومون شيئًا من الحياة أكثر من كأس وسيجارة وفتاة، وهل يقبل صديقه الآخر محمد علوان الساكن بالقرب من مقابر الدراسة أن يستقبل رحاب في بيت أسرته المتواضع والمكتظ بكتل من اللحم البشرى، محمد علوان ذلك الشاب المتدين والذي يحرم مجرد النظر في وجه خطيبته، وإذا تحدث إليها عبر الهاتف المحمول لم تزد كلماته معها عن الدقيقة الواحدة، ومن أجل هذا وأشياء أخرى كان محمد علوان دائم الشجار مع هيثم القللي رأس الزاوية الثالثة في

مثلث الصداقة المتناقضة، الثلاثة كانوا متناقضين تمامًا كالماء والهواء والنار، كل واحد منهم في إمكانه أن يقضي على الآخر!، وهم في الوقت ذاته لا يستطيعون الاستغناء عن بعضهم البعض، الماء تطفئ النار، والنار تُسِّعر الهواء الذي يتلاعب بألسنتها فتجفف الماء، ولكن يبقى أن ثلاثتهم يشكلون عناصر الحياة الطبيعية والتي لا مفر من تعايشها معًا في وعاء واحد ولو لم يمتزجوا كالماء والزيت، كانت هذه هي المعادلة المركبة التي جعلتهم منذ سنوات صداقتهم القديمة يتعايشون ويتنافرون، ولعل محمد علوان كان يمقت هيثم القللي ويحبه، وكذلك كان هيثم يسخر منه ويحترمه، أما ربيع فلقد آثر أن يكون الهواء يأخذ من هذا ومن ذاك لاعبًا دور الوسيط الملطف بين عنصري الماء والنار، غير أنه في المرة الأخيرة التي جمعت شمل ثلاثتهم ببعضهم البعض لم يفلح في إطفاء ثورة غضب محمد علوان، وشجاره مع هيثم إلى حد التلاسن والتشابك بالأيدي، كان هيثم قد وقف مستندًا إلى جذع شجرة عالية الهامة، وراح يضرب كفًا بكف عجبًا وهو يضحك ساخرًا من محمد علوان الذي لم يكن متأكدًا من لون عيني خطيبته، والتي لم يبُح حتى بمجرد اسمها لأعز صديقين له، وكان يقول لهما وقد لاحت علامات الغضب في تقاطيب وجهه الأبيض الناصع:

- وماذا يفيدني لو عرفت لون العين أو الشعر وما دمت قد عرفت لون القلب.

فقال هيثم:

- يا أبله معرفتك بلون العين والشعر والجسد، وتمعنك في وجه فتاتك، وملامسة أياديكما على الأقل ولا أقل شفاهكما سوف تجعلك تعيش معها خلوات وردية على وسادة الأحلام الجميلة.

فقال محمد محتجًا:

- الخلوة الوحيدة التي أعرفها يا سيد هيثم هي الخلوة الشرعية.
- هي أطلت في وجهك وتطلعت إلى جسدك المشوق وتعيش مع نفسها تلك الخلوات اللذيذة التي تحرم أنت نفسك منها يا غبي.
- هي تغض الطرف مثلي.
- ومن أدراك؟.
- أنا أعرف جيدًا أي بيت دخلت.
- ولكنك لا تعرف في أي قلب ستسكن.

- على الأقل إذا قررت أن أدخل قلبها يومًا ما فلن يكون بطريقتك أنت يا زير النساء.

ولوقت طويل تماديا في الجدال والتلاسن والشجار الذي يضحك المرء ويبكيه، وربيع شارد لا يتكلم، وأحست رحاب من ناحيتها ببحر الحيرة الذي أغرقت فيه ربيع، والذي كان يمشي منكفئًا على ظله المرتعش، ثم توقف فجأة ونظر من علٍ في اتجاه مقابر الدراسة، كانت تبدو من بعيد مثل مدينة للأموات، وأحست الفتاة برعدة تسري في أوصال جسدها، فالتفت ربيع ناحيتها قائلاً وقد أحس بما يعتمل في صدرها من توتر وقلق شديدين:

- لن يطول بقاؤك كثيرًا في هذه المقابر على الأقل حتى أتصرف.

فقالت بنبرة احتجاج عارمة:

- وألا يوجد مكان على وجه الأرض تأخذني إليه غير هذا.

- لا تتمردي عليه فقد لا يقبل هو بوجودك فيه أصلاً.

- طبيعي ألا أُقبل في مكان لا يقطنه غير الموتى.

- هه ومَنْ قال لك؟.

وأشار بطرف سبابته بعيدًا إلى هناك حيث اندست في تلافيف أذن الواقع الأصم قطعان هائلة من البشر الأحياء والذين

تناثروا كقطع زجاج منكسرة وراء شواهد القبور المنتصبة، وفي زوايا شقوق المقابر الحجرية، وعلى عتبة زاوية مسجد المنطقة العتيق، بل في مداخل المقابر ذاتها وقد ناموا جنبًا إلى جنب مع الموتى والجوع والمرض والفقر اللعين!.

- الحياة قصة لا تعجبني، أحاول تمزيق أوراقها المكتوبة بأيد بشرية وقحة، وكتابة كل شيء من جديد، حتى أدق التفاصيل، هه هذا أفضل من الجنون.

لم تفه الفتاة بهذه العبارة الطويلة صراحة، بل كانت تطويها في سويداء أحاسيسها المضطرمة، ولكن الصدى الطائش غافل لص الوساوس الكامنة وراح يطير بكلماتها ويترجرج بها في خلاء الوجود، أو هكذا خيل للفتاة أنها قد أصبحت عريانة مفضوحة أمام العالم كله فلاذت بالصمت الثقيل حتى في أعماقها.

استطاع ربيع بالكذب والخداع أن يأخذ مفتاح مقبرة عائلة صاحبه محمد علوان لكي يواري سوءة فعلته الشنعاء، وكان كلما سار خطوة للأمام ازدادت عروق غضبه نفورًا، ليس من الفتاة ولكن من نفسه، فالفتاة ضحية كانت أم مذنبة لا شيء عليها فهو من قبل بمساعدتها إلى هذا الحد المخجل، وهو من تطوع بالسير بها هكذا كشبحين في دياجير الظلام؛ وأعين الشر الملتمعة كجمرات النار تحدق بهما من وراء أستار الشقوق

العميقة، أنثى لفظة سحرية تحيل جبال الثلج نارًا، وتهيل تلاً من صور الشهوة المتمردة على الحواس الداخلية والخارجية لسكان الدمن العفنة هؤلاء، ارتعدت فرائص الفتى وقد التفت إلى يمينه، إلى يساره، بل إلى كل الجهات فلم يجد الفتاة، سُحب قلبه من بين أضلعه وقد غشيته صورة ذئاب وحشية وهي تنهش في لحم فريستها الطرى والذي يسيل لها اللعاب، ورأى عند شاهد القبر البعيد كلبًا مسعورًا يلملم قطعة من العظم تحته ويعانقها وينبشها ويفتك بها بأسنان اللذة ، ولكنه أفاق من غيبوبة اللحظة المهيمنة على خلاياه العصبية المتوترة والفتاة رحاب تشده برفق من يده بأطراف أصابع يدها الرقيقة وهي تهتف به قائلة:

- ربيع لماذا توقفت عن السير؟!.

ولأول مرة يتنفس الفتى الصعداء وقد أحس أن روحه قد عادت إليه مجددًا، الخوف ودائمًا الخوف يمكنه أن يخفي عالمًا بأكمله عن أعيننا فلن يعييه أن يخفي مجرد فتاة لبرهة من الزمن، مد ربيع يده ناحية يد رحاب ثم أمسكها، وظل قابضًا عليها بشدة وقد مضيا يخرقان عيني الظلمة وهو لا يكاد يرد على كلماتها بمجرد إيماءة واحدة، كانت رحاب تعتذر له لكونها قد أفسدت عليه ليلته، بل جعلته يخدع صديقه محمد علوان،

ويختلق له قصة واهية حتى يأخذ منه مفتاح المقبرة التي سوف تعيش فيها فتاة مشبوهة لفترة ما، وهي الحقيقة التي أخفاها ربيع عن صاحبه والتي تعرف كم هو غير مرن ومتزمت في كراهيته للنساء الطائشات، ولن يقبل بوجودها في مقبرة العائلة الطاهرة العفيفة بحال من الأحوال، وكان ما يخيفها ويخيف ربيع نفسه ما قاله محمد لربيع على سبيل التندر، وإنه كثيرًا ما فكر في هجرة أحياء عائلته والسكني مع أمواتهم في المقابر، فكانت رحاب تقول في نفسها ماذا لو قرر محمد علوان الإقدام على ذلك بالفعل، أو على الأقل المجيء لزيارة ربيع في المقبرة والذي ادعى أنه ترك حارة المنسي بعد أن تشاجر مع شقيقه سليط، ربيع أيضًا كان يفكر في تلك الاحتمالات، أما محمد علوان فلقد كان في اللحظة ذاتها شاردًا بدهشة في صديقه البار والذي من الصعب أن يتخلى عن أمه الضريرة هكذا بسهولة، وأن سرًا ما في الأمر يحتاج إلى التفكير العويص جدًا !؟.

كانت المقبرة ضيقة ومقبضة ورائحتها خانقة، وكانت الريح الليلية تعبث بأوراق سنطة عالية وتدفع بعض أوراقها دفعًا للتخلي عن أغصانها والسقوط أرضًا، التقطت رحاب إحداها ونظرت إليها مليًّا وقالت:

- هل لو أعدنا هذه الوريقة المسكينة إلى غصنها ستدب فيها الحياة مرة أخرى؟.

فهم ربيع مغزى سؤال الفتاة وهو ينظر طويلاً في اتجاه أوراق الشجرة المتساقطة على أرضية المقبرة والتي كانت تنير بعض أنحائها بالكاد مسرجة زيتية فتيلها الدقيق يحمل لهبًا مرتعشًا للغاية وقال:

- ربما لو أعدناها الآن لفقدت حياتها بالفعل.

- ربيع أنت تقصدني أنا، وأنا أقصد ورقة الشجرة.

قالتها رحاب وهي تتجرد لأول مرة من عباءتها السوداء، كانت سمراء جميلة، وقوامها الساحر المحشور في البللو جينز وبادى ناري اللون ينساب على العين أي عين كشلال من الفتنة الطاغية، وابتدر ربيع إحساس ما وكأنما لم ير هذه الفتاة من قبل، لقد كان يراها كثيرًا في الكلية، بل كانت تعجبه ويفكر فيها طويلاً، ولكنها لم تكن بمثل هذه الروعة ولا هذا السحر الأخاذ، ضحكت رحاب ضحكة عالية كتمتها سريعًا بيدها وقالت وهي تغمز بإحدى عينيها وتلقى في الوقت ذاته بجسدها فوق أريكة خشبية متهالكة كائنة بالقرب من سور المقبرة الداخلي:

- ما بالك تنظر ليَّ هكذا نظرة رجل وامرأة وشيطان.

- لا أبدًا أبدًا.

مال ربيع على الأرض والتقط ورقة من أوراق السنطة المتساقطة وقال:

- رحاب أنت كنت تقصدين نفسك بمَثَلِ ورقة الشجر الساقطة، بل لا يخالجني شك في أن كليكما كان ضحية، هي ليد الريح العابثة، وأنت لعزيز الباشا، والفارق بينكما أنها ماتت بالفعل أما أنتِ فما تزالين حية، ولسوف تظلين حية، لأنني لن أتخلى عنكِ أبدًا.

دقت بكعب عصاتها التي تتوكأ عليها الأرض دقة قوية جعلت الفتى ينتفض في تلافيف ذاكرته الهائجة، وبدا وكأنما قد ضاع منه واقعه إلى الأبد وهو يلف ويدور كذبابة حائرة في متاهة الذكريات المتعرجة إلى مالانهاية، كانت عينا أم الزين المنطفأتين تومضان بشدة كطاقتين من نار متأججة وهي تقول غاضبة:

- ربيع لم يبق لنا غير الخرق القذرة حتى نستقبلها في بيتنا، ماذا تريد منك هذه الساقطة بالضبط؟.

قفز ربيع كالملدوغ من فوق الحصيرة البلاستيكية الملونة شبه الممزقة والتي كان يفترشها آنذاك وهو يكاد ينطق قائلاً:

- قد تبدو حقًا من حيث الظاهر أنها ليست أكثر من مجرد خرقة بالية في مرحاض عفن، ولكنها ضحية على أية حال و.....

ولكن انتابه بشكل فجائي السكون الذاهل، وأمه تدبه بحدة حانية في عظام صدره الناتئة بقبضة يدها الضعيفة المعروقة، وهي تبصق في وجه الشيطان الدنيء الذي أوقع ابنها الطاهر النبيل في أحابيل الفتاة اللعوب «أهداب» !!؟.

(٦)

راحت بيدها تضرب يدها الأخرى المسندة إلى رأس الشومة حتى أدمتها، وهي تجرى متعثرة بلهفة قلب مستعر من نافذة إلى نافذة أخرى وتتطلع إلى الطريق، كانت لا ترى ربيع ابنها الواقف مع الفتاة لبنى أو أهداب على ناصية حارة المنسي، ولكن كانت عينا أحاسيسها المبصرة تحس بأن رجلها الصغير في خطر داهم، فما بال هذه الفتاة السيئة السمعة في المنطقة كلها تطرق بابهم عصر اليوم على غير موعد، ولماذا بيتهم هم بالذات وما الذي يربطها بابنها ربيع حتى تطلب مقابلته هكذا بلا حياء أو أدب، بل تصورت أيضًا أنها وراء شرود ابنها الدائم، وصمته الطويل، ورفضه التام لتناول الطعام منذ حضر ليلة أمس متأخرًا على غير عادته، ولم تكن تدري أن فتاة أخرى هي التي استولت على لبه، وصرفته عن واقعه، وجعلته يندفع بلا حساب في طريق المجهول.

كانت أم الزين فرحتها في الحياة هي ربيع، وخشيتها من الحياة على ربيع، ربيع ابنها الطيب النبيل والذي تشعر أنه ثمرة وجودها الوحيدة والتي خرجت بها فائزة بعد تجربة مريرة مع الحياة، كانت سمر ابنتها قد ذهبت بلا رجعة، وكذلك كان

ابنها سليط الحاضر الغائب، والذي كان صوته الأجش يأتي من خارج الحارة فيصك أذنيها وهو يدلل على بضاعته التي تفترش أرض الموسكي، أما ربيع فهو فارسها الحاضر دائمًا، فغيبته كانت ذرات النور التي تتحد وتتكثف وتنير لها ثنايا عالمها المظلم، وحضوره كان يعنى لها أن النور قد أصبح ذا جسد حقيقي يمكن الاقتراب منه، ملامسته، معانقته والبان فيه، كان روحها التي تسكن خارج جسدها، وقلبها وعقلها، وفرحتها وخلاصة رغبتها من الحياة، وبعد فترة من الشرود المطلق في عالمها المتهاوي الأبعاد، والذي تحرك خلاياه الدافقة روح ابنها الأثيرية الهائمة؛ رفعت أصابع يدها الدامية أمام عينيها وهي تتطلع إليه من خلال تفاريجها متمتمة بنبرة باكية:

- كانت شلت قبل أن تمتد عليك يا حبيبي.

لم يكن الفتى هو ذات الفتى الذي عرفته قبل يومين وعندما هاجمها في مدخل الحارة كلب مسعور، كان قويًا منتبهًا، تترقرق من نظرات عينيه الحادتين طراوة الإحساس بوجود الأنثى، ولكنه يترك مسافة ما تجعل الأنوثة حرة طليقة هائمة من الفرحة الخالية من معانى الخوف الدائم المستتر من شيءٍ ما، كانت صورته التي لاحقتها ولم تفارقها البتة تتدفق بكل معانى إفراز الإنوثة من أعماقها، لقد توهمت لبنى طويلاً أنها تبيع

أنوثة طاغية لطلاب المتعة العابرة من خلال كاميرا الإنترنت المثبتة فوق شاشة جهاز الكمبيوتر، والتي تتعرى أمامها شيئًا فشيئًا، وتتراقص كشيطانة غاوية شاردة في عالم سرمدى لعوب لايسمع فيه غير صوت أنفاس الرغبة الهائجة، أما اللحظة إياها والتي لامست فيها عيناها لأول مرة ذلك الجسد الفارع فقد جعلتها تدرك أنها تحتال، وأنها لاتبيع أنوثة صادقة؛ وإنما تبيع مجرد نقاط ضوئية مشتتة لاروح فيها ولاحياة لرواد عالم المتعة الغيبوبى، كانت نفس وعقل لبنى مشحونة بسيل من الخواطر الغريبة والأحاسيس المضطربة، لقد كانت مثل قط المانك تخرج من فروة الغموض بدافع من هذه الأحاسيس، وليلة البارحة لم تقوَ على ممارسة البغاء الافتراضى، أغلقت كاميرا حاسبها الآلى، وكذلك هاتفها المحمول الذي تتلقى من خلاله الأوامر المريبة من ذلك الشخص المجهول الذي من مكان ما يحركها كدمية بأصابعه الشيطانية الخفية، وبدافع من هذه الأحاسيس ذاتها خرجت من باب شقتها بعد نوبة من التردد العصبي إلى أين لا تدري، سارت طويلاً ولكنها لم تقطع غير مسافة قصيرة، وها هي ذى أمام ربيع، وهي لا تدري لِمَ طرقت بابه، وكيف تحملت غضبة أمه الضريرة، وماذا ينبغي عليها أن تقول له، ولكنه كان ينبغي عليها أن تنطق بشيء ما وهي تنظر كالمفجوءة إلى عنان السماء حيث كان يتطلع إليها الفتى حانيًا

رأسه لأسفل، لم تكن قصيرة ولكنه كان عملاقًا، كانت ساقاها ترتعشان من أسفلها، ودقات قلبها ترتفع عاليًا، وتتصبب عرقًا، وشفتاها الملتهبتان تلتصقان ببعضهما البعض حتى كادت تصرخ بجنون الفرحة «أنا حية لم أمت بعد»، القلق التوتر الخوف كلها إشارات تدل على وجود الحياة، القوة الغاشمة والجرأة المحمومة والاندفاع بلا حساب هي محصلة الموت نفسه، كانت لبنى الشهيرة بأهداب على موقع ساخنة في انتظارك قوية جريئة مندفعة ولكن قلبها كان متوقفًا لا يدق، الآن هو يدق ويدق هي الحياة إذن تدق الباب، وكان ربيع نفسه هو الواقف بالباب، كانت لبنى تريد أن تشكر ربيع، أن تطير وترتفع عن الأرض مسافة الشبرين التي تفصل بينهما لتعانقه وتقبله، وهو كان يديم إليها النظر، لم تكن في جمال رحاب العوضي، ولا في طولها الممشوق، ولكنها كانت تشع غموضًا أخاذًا، ذلك النوع العجيب من الغموض الذي دفع ربابنة البحار يومًا ما لاختراق دياجير الظلام وأعباب المحيطات لفك طلاسمه التي اكتنفت عالمنا القديم ولم تزل بعد، كان هو الآخر يريد في أعماقه منذ فترة طويلة أن يفك طلاسم هذه الفتاة الغامضة، والتي باتت رمزًا للشر الغامض في حارة المنسي وبقية حارات المنطقة وأعطافها وطرقها الرئيسة، ولهذا التمس كثيرًا من العذر لأمه لحظة ثورتها على مجيء مثل هذه الفتاة المريبة إلى البيت،

كان كلاهما ينظر إلى الآخر صامتًا وعيناه ملأي بطوفان من الأسئلة والكلام، وفجأة رن جرس الهاتف المحمول، زفرت الفتاة بضيق وهي تعتذر لربيع وأنها قد نسيت أن تغلق هاتفها، وعندما تطلعت إلى شاشته المضيئة بان الامتعاض والتوتر أكثر في وجهها، كان في إمكانها ألا ترد على الطالب ولكنها كانت تعلم أنها مرصودة في مرمى نيران الغضب الأسود، وأن ذلك المجهول الذي يحركها ويجردها من إنسانيتها في كل لحظة من لحظات حياتها التعسة كائن في مكان ما، بل ربما يكون أمامها مباشرة أو وراءها ولكن لا تراه لكونها لا تعرفه أصلاً، عرفته من طريق العالم الافتراضي وإعلان انقري هنا إن كنتِ تودين ربح آلاف الدولارات عبر شبكة الإنترنت، فنقرت وتجردت ومارست البغاء التخيلي ولكنها لم تكسب الكثير كما صور لها الإعلان!!، وبالكاد ضغطت زرار الرد وهي تتقاسم نظرة ود خاطفة مع فتاها الفارع، نظرة ما لبثت أن تشوهت بعبارات القتل البطيء التي كانت تتلقاها عبر سماعة الهاتف المكتومة في صوان أذنها، والتي كان يتدلى منها حلق بندقي اللون يرتعش مع رعشات كانت تهزها بعنف من الداخل.

مشيا جنبًا إلى جنب وهما يحاوران الصمت ويحاولان فك طلاسم الزحام المكدس، كانت عينا سليط قد ارتفعت خلسة

عن بضاعته التي تفترش زاوية ما قريبة من قسم الموسكي فلمح شقيقه يمضي بالقرب منه مع فتاة الحارة السيئة السمعة لبنى، فضج بالضحك وصرخ بصوت عالٍ وهو يمسح بيده القذرة على تكويرة كرشه الكبيرة والتي ابتلعت أسفل ردفيه وهو يقول ساخرًا:

- يام الزين يام الزين.

لم يلتفت إليه ربيع، وتجاهل نداءاته المتكررة، وشد الفتاة من يدها وقفز بها مسرعًا في أول أتوبيس قابله، وبعد أن استويا واقفين في داخله قال لها:

- سَليط اللسان أخي لا يحتمل.

لم تفهم لبنى ما يقصده ربيع بالضبط ولكنها ابتسمت له ابتسامة مجاملة وهي تزيح خصلات شعرها المصبوغة باللون الذهبي جانبًا، ثم عادت إلى تكشيرة الهم المرتسمة على وجهها، كان الأتوبيس قد اقترب من كورنيش نهر النيل الغاص بالعاشقين والمريدين الذين ينتظرون ليل اختلاس القبلات، وبسرعة قفز الفتى والفتاة إلى خارجه عندما سار بطيئًا، ومضيا قريبًا من السياج الحديدي للنهر وقد أمسك كل منهما بكوز من الذرة الشهية وراح يقضم من حباته المتفحمة

الأطراف، كانت الأحداث التي تلاحقت بصورة مكثفة قد أعفت لبنى من مشقة البحث عن مبررات اقتحام حياة ربيع بهذه الصورة الفجائية المزعجة، والذي نظر مليًا في صفحة وجهها المهموم وقال:

- قبل المكالمة الهاتفية التي جاءتك كنتِ أحسن حالاً من الآن.

فقالت بارتباك:

سمعت خبرًا سيئًا هذا كل ما في الأمر يا.....

اسمى ربيع، وأنتِ؟.

أهداب، أخبرت أمك بذلك ألم تقل لك؟.

قالت لي ّ، هو اسم جميل حقًا ولكنه لا يشبهك أليس كذلك؟.

ران الصمت طويلاً على الفتاة فأردف ربيع قائلاً وهو يبتسم:

هل اسمك الحقيقي مشكلة عويصة إلى هذه الدرجة؟.

ربيع لاتشغل بالك بإسمى الحقيقي الآن، وقل لىّ ماذا يقولون عني في الحارة بالضبط؟.

أطرق ربيع إلى الأرض ولم يحر جوابًا سريعًا ولكنه سمع الفتاة تردف قائلة:

يقولون عليَّ عاهرة، ساقطة، وأنت ماذا تقول عني؟!.

أنا لا أعرف عنك شيئًا حتى أرد على مثل هذا السؤال.

إذن خمن من أنا؟.

دعك من كلام أهل الحارة، أنتِ فتاة غامضة وتلك هي مشكلتك.

وهل كل من تأخذ جانبًا بعيدًا عن الناس تصبح غامضة وسيئة السمعة؟!.

أنا لم أتحدث عن كونك سيئة السمعة ولكنني أتحدث عن غموضك المؤكد.

هل هذا لمجرد أنني قد أخفيت عليك اسمي الحقيقي.

أنت تخفين كل شيء حقيقي فيكِ وليس اسمك فقط، وهذا سلوك في حد ذاته كفيل بأن يحير في أمرك كل من يعرفك.

معك حق، ولكن لا تنس أن الغموض هو التركيبة السرية لشخصية المرأة.

معك حق.

قالها ربيع وقد شرد طويلاً في رحاب والتي غيرته بين ليلة وضحاها، بل لم يكن ليخرج مع فتاة غامضة لا يعرفها إلا من أجل أن يقترب من الأنثى أكثر، أية أنثى حتى يعرف رحاب العوضي أكثر فأكثر، وها هي ذي الفتاة التي تدعى أن اسمها أهداب تلقى في سبيله بطرف الخيط الذي لا يحل له لغز المرأة ولكن يزيده تعقيداً، فمضى صامتًا وهو يصغي باهتمام لأهداب والتي شرعت تواصل حديثها قائلة:

طبيعة مجتمعنا الشرقي تُحجب المرأة، لا أقصد بالحجاب الملبس والطرحة والبرقع وما إلى ذلك، بل أقصد مشاعرها، أحاسيسها، سلوكها، طبيعتها، كل هذه الأشياء تتحجب بالغموض، والمرأة ليست مسألة حسابية أو معادلة كيميائية تطلق من خلالها أحكامك وأنت في غاية التأكد من صحة النتيجة التي توصلت إليها، المرأة هي مسألة وقت ومعادلة عشوائية لواقع مرتبك، تحاول أن توازن من خلالها بين مسافة الزمن القصيرة التي تحيا فيها وبين ضغوط الحياة الكثيرة التي تتجاوز حدود الزمن في المكان الذي يحتويها.

أعتقد أن لكل إنسان منا تركيبته السرية وليست المرأة وحدها فقط.

أوافقك الرأي ولكن بدرجات متفاوتة أعلاها المرأة بلا أدنى شك، المرأة في بلدنا إذا ابتسمت لشاب مجرد ابتسامة، جردها تمامًا في خياله من ثيابها وتصور أنها تدعوه لفراشها، أما في الغرب فالدعوة للفراش تتم بشكل واضح، وتظل الابتسامة هي الابتسامة ليس أكثر ولا أقل.

هذا ليس صحيحًا، أنتِ تتحدثين عن مرضى لاعن أسوياء، وأنتِ فعلتِ معي ما هو أكثر من الابتسام نفسه ومع ذلك لم أُسيء فهمك.

وماذا فهمت إذن؟.

أني مجرد كرسي للاعتراف، أحبت فتاة غامضة أن تعتليه ردحًا من الزمن لكي تبوح بسرها المكتوم وتستريح وليس أكثر ولا أقل أيضًا.

ولكنني لم أنطق بكلمة واحدة.

ولكن عينيك قالتا كل شيء.

دمعت عينا الفتاة وقالت وقد أحست كونها عريانة تمامًا أمام هذا الفتى البسيط في هيئته العميق في جوهره:

وماذا يعني لك هذا؟.

يعني ليّ أنني أمام فتاة طاهرة.

طاهرة!!.

أهداب، بل أقصد فتاتي العزيزة س لا يوجد اتجاه إجباري في الحياة يجبرنا على السير فيه دائمًا وبلا توقف، يمكن للمرء أن يتوقف، وأن يتراجع، وأن يمضي حيث يشاء، وحينها يكون قد حدد بنفسه لنفسه الاتجاه الإجباري الذي عليه أن يمضيَ فيه قدمًا وإلى ما شاء.

شردت لبنى طويلاً في كلام ربيع؛ وفي صورته وهو يهش عن سبيلها كلب السكة الضال، ولم تشعر به وقد أولاها ظهره ومضى منصرفًا وهو يلامس بأطراف أصابع يده أسياخ السياج الحديدي المطوق لحافة شاطئ نهر النيل سيخًا بعد سيخ، بينما كانت أم الزين في الوقت ذاته ماتزال بعد رابضة وراء نافذة البيت المطلة على الطريق في حارة المنسي، وطالت غيبة الفتى وكذلك طالت وقفتها أكثر مما يحتمله إنسان على وجه الأرض.

(٧)

أهمل ربيع في كليته، واضطر إلى العمل الليلي الشاق في قهوة بلدي قريبة من منطقة مقابر الدراسة بعد فراغه مباشرة من العمل في محل السمك، كانت رحاب قد أصبحت مسئولة منه مثل أمه ونفسه، ولم تكن لطلباتها حدود، بل أصبح مسئولاً أيضًا عن مصروفات متابعة الجنين الكامن في أحشائها، وكذلك عن تدبير مصروفات الولادة المنتظرة، وكانت رحاب تمسح بيدها الناعمة على كتفه وتعتذر له بصوت أنثوي رخيم، وأنه سوف يأتي لامحالة اليوم الذي ترد له فيه جَميلَه، وبعد أن تكون قد استردت حقها وحق جنينها من عزيز الباشا كاملاً.

أصوات الملاعق وهي تتقلب في أكواب الشاي والسحلب، أصوات كركرة الشيشة والضحكات الملتاثة الملفوفة برائحة دخان البانجو وأقراص الترامادول، النظرات الزائغة التي تستقي وجودها، معانيها، حسراتها، ترهاتها من أحوال آلاف العباد البؤساء، والحكايا الشاردة المنبعثة من أفواه تائهة معبأة برشفات من البيرة الرخيصة الفاسدة، كلها أشياء كانت تصطك بأذني وعيني ووعي الفتى وتشكل أركان عالمه الجديد، عالم لم ترتسم أسواره فجأة من حواليه، وإنما دخله بمحض إرادته

الحرة، وراح يمشى فيه وهو يعلم مسبقًا كم سيلاقي من مشاق وأهوال، أما لماذا فعل ما فعله فكان هذا هو السؤال الصعب الذي عجز عن إيجاد إجابة شافية له، وما كان أيسر على الفتى أن يطرح على نفسه مئات الأجوبة، ولكنه كان يريد في حقيقة الأمر إجابة واحدة لا غير، الإجابة الصحيحة التي تشفي غليله وتقر له بأنه قد فعل ما فعله من أجل شيء بعينه، الحب، شهوة المال والجسد والشهرة من خلال الصدام مع عملاق السياسة والاقتصاد عزيز الباشا؟، أم أنه قد وقع بلافكاك في شباك الفتنة، وغاوية لعوب تعده فيما يبدو من طرف خفي لمعركة دامية مع الرجل الرهيب عزيز الباشا، وآنذاك تراءت له في حنايا ذاكرته صورة النهر وقد تتطاير الهواء بشعر الفتاة أهداب الأهوج الذهبي، ودوت في أذنيه كلماته التي قالها لها وأنه لا يوجد اتجاه إجباري في الحياة، وأنه يمكن للمرء أن يتوقف، وأن يتراجع، وأن يمضي إلى حيث يشاء، وأحس الفتى في أعماقه أنه يريد أن يفعل ذلك، وأن يطوح بصينية المشروبات في الهواء فوق رؤوس رواد المقهى البذيء، وأن يخلع الفتاة رحاب وجنينها الميكروسكوبى مثل حبة الفاصوليا من عنقه ويمضى عائدًا إلى بيت أم الزين ويرتمي تحت قدميها باكيًا.

كانت رحاب العوضي ممددة على حصيرة من أعواد الصفصاف الجافة، وبعد فترة من السكون راحت تتقلب وتنتقل إلى النوم على جنبها الآخر وهي تتحسس آثار قرصات البراغيث، وأعواد الحصيرة التي حفرت الكثير من الأخاديد والنتوءات العميقة في ساقيها وذراعيها البضين العريانين، فنفخت بضيق وهي تنظر إلى شاهد المقبرة المنتصب قبالتها مباشرة، فاستدارت بسرعة عائدة إلى النوم على جنبها الآخر الذي آلامها طويلاً بعد قليل، ولم تكن رحاب يومًا ما مرفهة في حياتها، بل كانت حياتها هم متصل وعناء لا ينقطع، ولهذا نجحت في المقاومة والاستمرار في مثل هذا المكان الموحش، كانت تشعر أن الأموات يحدقون بها من كل ناحية وهي التي تروم الحياة من كل قلبها، حياة قررت أن تكتب سطورها بيدها، وأن ترسم معالمها، وتحبك تفاصيلها المعقدة والدقيقة جدًا، ولكونها امرأة تحب الحياة والثراء وتمقت الفقر والبسطاء، كان لا مفر من التضحية بأشياء كثيرة لِمَ لا والغاية تبرر الوسيلة منهجها الذي كانت تؤمن به وها هي ذي تطبقه على أرض الواقع، وكان صوت أمها الفلاحة البسيطة يغلب أحيانًا على طبقات الفولاذ البالغة الصلابة التي صبتها في أعماقها كي لا تسمعها أبدًا وهي تطلب منها أن ترضى بالمقسوم، وألا تعاند القدر، فكانت تغلق مسمعيها بكلتا يديها، وتغني بصوت عال كالموتورة حتى ينقشع

هذا الصوت الذي ينطق بالكلمات التي تكرهها من كل قلبها، وفجأة تراءت لها صورة ربيع من وراء أهداب عينيها المنسدلة، كان يتطلع إليها بدهشة شديدة وهو يحمل بيد كيس بلاستيكي بداخله خضراوات وطماطم وبطاطس وخيار، وفي اليد الأخرى كان يحمل كيسًا ممتلئًا بالخبز والفاكهة الطازجة والبيض والجبن الأبيض والأصفر، في حين كان يضغط تحت إبطه على زجاجة بيرة ستيلا خضراء معتقة أحضرها من المقهى الذي يعمل فيه، فهبت رحاب متهللة، وراحت تشد الزجاجة من بين ثنايا ذراعه وتخرج علبة السجائر الخاصة بها من جيب سرواله الخلفي وقالت وهي تشعل سيجارة وتشم رائحة إبطيها بتأفف:

- حسنًا أنك جئت الآن، أنا جائعة جدًا، كما أنني أصبحت كريهة الرائحة وأريد أن أستحم، وباب المقبرة المتهالك وسورها ليس مرتفعًا بما فيه الكفاية حتى يعطي الأمان لامرأة عريانة تستحم في مثل هذه المنطقة البشعة.

كانت رحاب خلال ذلك تضغط على السيجارة بشفتيها القرمزيتين، وتخلع ملابسها شيئًا فشيئًا وهي تتكلم كثيرًا، وتطلق من فمها دخانًا كثيفًا عبق المكان برائحة النيكوتين الأسود، فاستدار ربيع موليًا إياها ظهره، وراح وهو مطرق إلى الأرض يشد بيده أطراف ملاءة قديمة متدلية من فوق حبل

الغسيل، وأخذ يفصل بها بينه وبين رحاب التي كانت في اللحظة ذاتها تسحب طستًا نحاسيًا من أسفل الأريكة الخشبية، لحظات وتواتر إلى مسمعيه صوت خرير المياه وهي تنسكب فوق الفتاة، وتمضي خلال خصلات شعرها السوداء الناعمة، وتنساب في جداول جسدها المتعرجة، ثم تسقط متناثرة في قلب الطست وخارجه، وأحس بأن رذاذ المياه المتناثر يلامس صفحة يده من الخلف، فعرته الدهشة وقال بصوت مازجته حمرة الخجل وهو يمسح قطر الماء عن يده بيده الأخرى:

- لا أدري ماذا تفعل هذه الملاءة بالضبط؟، المياه أغرقتني.

ضحكت رحاب ضحكة ناعمة وهي تقول بنبرة لم تخل من شقاوة لذيذة وهي تلقي عليه بالملاءة:

- لا حاجة ليّ بها، إنها ملقاة في وجهي ليل نهار، أنا لم أنتظرها هي، ولكن انتظرتك أنت حتى تأتي فأستحم، أنت سترى الحقيقي.

أحس ربيع بنيران الرغبة الجامحة تستعر في أطراف بدنه مع تمادي انسكابات قطر الماء في قاع الطست وتطاير رذاذته الباردة على جسده الساخن، كاد يجن جنونه ويفقد وعيه أمام هذه اللحظة الأسطورية التي لممت بين يديها كل متناقضات

الدنيا، الرغبة، الشهوة، مسئولية الإنسان العاقل نحو الرغبات الحيوانية التي تملأ مسام جسده وتنتشر وتضغط على كل أعضائه وحواسه، ومسئوليته نحو احترام ذاته، والعهد غير المعلن الذي قطعه على نفسه للفتاة وبأنه سيحافظ عليها وسيساعدها حتى الموت، هذا غير فلسفته الذاتية وبأنه لايوجد اتجاه إجبارى في الحياة، ولا من يمكن أن يدفعنا من ظهورنا دفعًا إليه، فمابال هذه الفتاة تدفعه بوخزات الشهوة المكبوتة لكي يمضي إلى حيث تقرر هي لا هو، فإن فعلت وكانت هذه هي نيتها الخفية حقًا فلاريب أنها ستجعله في لحظة ما يتوقف حيث تشير، إنه مطية لاأكثر ولاأقل، أوهو مجرد فأر في مصيدة وقع تحت سيطرة الصياد الذي اصطاده، وترامى آنذاك صدى صوت الفتاة أهداب في مخيلته وهي تقول له للمرأة تركيبتها السرية، ولكن ماتفعله رحاب العوضى شيئًا يفوق السرية والسحرية ذاتها؛ ويمضي بالخيال قدمًا إلى ماهو أعظم من المجهول نفسه، فاندفع من فوره غاضبًا إلى خارج المدفن، لم يغلق الباب وراءه ولكن تركه مواربًا، لحظات وشاهدت رحاب التي كانت ترتدي ملابسها على ضوء المسرجة الزيتية الشاحبة سحابة دخان كثيفة تنبعث من فرجة الباب الموارب، فابتسمت ومضت خارجة من المقبرة، كان ربيع واقفًا يتطلع إلى ضوء القمر الوليد السابح في كبد السماء، كان يدخن بعصبية جمة،

ويفكر في الانصراف إلى الأبد من هذا المكان الخانق، ولكن شيئًا ما كان يمنعه من ذلك، وحينما اقتربت منه الفتاة دفع يدها بحدة عن كتفه وقاطعها قبل أن تنطق بأية كلمة وقال بنبرة مشحونة ببركان من الغضب:

لا تتصوري أنك تتعاملين مع أبله أو جبل من الثلج، أنا رجل، وأنتِ امرأة، أنا نار، وأنتِ وقود، هنا جبانة أموات لهم حرمة الموت، لا سجائر لا بيرة لا جنس.

كفى كفى، ربيع أنت فهمتني خطأ، أنا أردت فقط أن أعبر بتلقائية عصفور بريء عن شعوري بالأمان الذي أفتقده في غير وجودك.

لا أظن أن سياط الشهوة التي جلدت بها الليلة هي علامات شعور المرء بالأمان.

طوح ربيع بعقب السيجارة التي كان يدخنها بعيدًا ثم سكت طويلاً، بعدها استدار ناحية رحاب وقال بصوت خفيض وهو يمسكها بقبضتي يديه من ذراعيها بصورة مؤلمة، وبدا كمن أجلس عنوة على كرسي الاعتراف الجنوني:

- رحاب لقد كنت أفكر فيكِ منذ لحظات قليلة بعقلية شيطان دنيء.

ابتسمت رحاب ابتسامة طاغية الأنوثة وقالت وهي تتثنى بمخارج ألفاظها وتغمز بعينها:

ولِمَ لا تقل إنك كنت تفكر فيّ بعقلية إنسان طبيعي.

وهل كنت ستقبلين بأن أطارحك الغرام في العراء وفوق الحصيرة، هنا بين أطلال الموتى وعظامهم التي ينخر فيها السوس؟!!.

ولِمَ لا، فقط نعبث من غير تهور، لا تنس أنني أحمل جنينًا في أحشائي.

قالتها وهي تنظر إلى بطنها، ثم مدت يدها خلسة من وراء أستار رغبتها المحمومة، وراحت تلفها برفق حول يد ربيع الذي أفاق بعد هنية من سكرة الاستثارة، ثم قال وهو يحاول أن يتشبث بموقفه قدر الإمكان:

- الآن فهمت كل شيء، والآن فقط فهمت ماذا تريدين مني، وماذا كنت تخططين لعزيز الباشا، أنتِ لست ضحية والرجل لم يغتصبك كما تدعين، أنتِ من سمح له أن يفعل بك الأفاعيل حتى يهبك ما في بطنك، وبعدها تكون المساومة الكبرى والابتزاز القذر الحقير.

ثم تعالى صوته حتى صار كالصياح وقال وهو يدق على صدره بعصبية متناهية:

- ثم يدفع بالثور الأبله إلى حلبة المصارعة ليقف في مواجهة عزيز الباشا الثري الشهير ذي السمعة الطاغية والاسم العريق والرجال الشرسين الذين لا تعرف قلوبهم إلى الرحمة سبيلاً، وليذهب بعد ذلك إلى الجحيم من يذهب، المهم أن تكوني أنت الفائزة في النهاية.

كانت لحظة جنونية قرر خلالها الفتى أن ينسف كل خطط الفتاة المخادعة وأحلامها الشيطانية، فاندفع داخلاً إلى ساحة المقبرة الضيقة وراح يلملم أغراض رحاب داخل كيس بلاستيكي كبير، ثم ألقى بالعباءة السوداء في وجهها كي ترتديها ولتذهب إلى الجحيم الأبدي، كانت رحاب منهارة لا تصدق نفسها، وعند زاوية في ركن جانبي من الحوش ارتمت إلى الأرض منحشرة بين الجدارين الحجريين وهي تبكي بكاءً رهيبًا، وراحت تلطم على خديها وتضرب بقدميها الأرض وتنثر التراب في الهواء كطفلة صغيرة وهي تطلق أنات، تصاعدت فجأة لتصبح صرخات جنونية، فجرى ربيع ناحيتها بسرعة وسد فمها بيده وهو يأمرها بحدة بالغة أن تكف عن الصراخ والعويل فورًا حتى لا ينتبه الجيران إلى وجودهما، فيفتضح أمرهما في المقابر وعند

محمد علوان صاحبه وعائلته، ولكن الفتاة كانت عندية ولا تقبل أن تنهار خططها هكذا بسهولة، فلم تخش تهديد ووعيد ربيع لها، والذي ارتمى ظله العملاق الشبحي على وجهها لحظة تأهبه لمغادرة المقبرة:

- إبقي هنا كما تشائين مجرد فريسة حقيرة لكلاب السكك الضالة.

فهبت رحاب جارية في أثره وقالت وهي تجفف دموعها:

- ربيع أنت تحبني، أعرف أنك تحبني منذ أول يوم التقينا فيه، وأنا لن أجد لنفسي زوجًا أعظم منك يحبني من كل قلبه، ويجب أن نكون معًا ضد عزيز الباشا، صدقني ابنه يكمن في أحشائي، اختبارات الـ DNA سوف تثبت ذلك في وقت ما، عزيز قد يتخلص مني بسهولة إن واجهته وحدي، ولابد أن ألاعبه في الخفاء.

- وأنا الدمية التي سوف تحركينها كيفما تشائين حتى تنالين مرادك.

- بل أنت حبيبي الذي سوف يأتي لحبيبته بحقها، ربيع لا تفكر كثيرًا في التفاصيل الصغيرة والمسميات العتيقة،

المهم أننا في النهاية سوف نحصل على ثروة طائلة نؤمن بها مستقبلنا معًا، ألم تمل يا حبيبي من الفقر والجوع والمرض مثلي، هل تعجبك حياتك البائسة هذه؟ وألم تثر عيناك يومًا على صورنا الفجة هذه مقارنة بأصحاب الياقات العالية، الصقور المتوحشة، الأبقار السمان؟!.

سكت ربيع لفترة ثم قال متسائلاً إليها أكثر منه مجيبًا على سؤالها الصاعق:

هيه أنتِ تعرضين على صفقة إذن؟.

سمها صفقة.

فلماذا تتحدثين عن الحب، والحب يفسد الصفقات.

ربيع القطار انطلق، الرصاصة خرجت من فوهة المسدس، ولا سبيل أمامنا للتراجع، ويجب أن نفكر فورًا في الخطوة التالية.

لا تتحدثي نيابة عن أحد وتحدثي عن نفسك فقط.

دنت رحاب من ربيع، وحاولت أن تغوص بلحم جسدها الطري الجامح في عظامه القوية الحادة النافرة وهي تقول بصوت إفعواني هامس:

- صدقني هي صفقة نعم، ولكنها غير أي صفقة، إنها الحب والثروة والسعادة والخلاص من الفقر إلى الأبد.

تنهد ربيع تنهيدة حسرة طويلة وقال بأسى وكأنما يودع حبيبته وداعًا أبديًا:

تقولين الرصاصة انطلقت ولا يمكن التراجع أبدًا، أنا كذلك لا يمكن أن أفكر في فتاة لعوب ساقطة مبتزة ومهما كانت المغريات.

ربيع ماذا تقصد بالضبط؟.

لا شيء يجبرني على السير في هذا الاتجاه.

دام الصمت طويلاً بين إطراقتين، إطراقة أسى قاتلة تحاول أن تلفظ الحب من سويداء النفس، ذلك الحب الذي أبصر للتو ورأى بعينيه أنه أحب شيطانة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وإطراقة الجنون المكتوم، الحلم المنهار، والخطط التي ذهبت أدراج الرياح وكأنها تعاريج خطوط نقشت على رمال شاطئ بحر هادر غدار، ولكن أي بأس في أن يذهب هذا الفتى الأبله إلى الجحيم ويأتي غيره، فما العيب في هيثم القللي، طائش متهور لا يعتمد عليه حقًا، ولكن يبقى أنه أسير رغباته ونزواته، وقد يقلب الآية على رأس الفتاة ويصير هو نفسه

المبتـز الأوحـد في اللعبـة جلهـا، ولِـمَ لا يكـون إذن محمـد علـوان وعلى مـا فيـه مـن طبيعـة مختلفـة عمـن حولـه، شـديد التديـن نعـم، ضيـق الأفـق، عنيـد، ولكـن يبقـى أنـه بحكـم الفطـرة رجـل مثـل بقيـة الرجـال الشـرهين التواقـين للنسـاء، بـل ربمـا يزيـد عليهـم بكونـه يكبـت رغباتـه بسـتارة التديـن، سـتارة مـا تلبـث أن تصبـح مهلهلـة ممزعـة أمـام خطـوات حافيـة فاجـرة، فليـس مـن الصعـب إخراجـه مـن صومعتـه القدسـية، وإن سـقوط مثـل هـذا الرجـل يكـون أشـد وقعًـا مـن سـقوط أي رجـل آخـر، والشـيء كلمـا زاد ارتفاعـه كلمـا كان سـقوطه أكثـر دويًـا و انفجـارًا، ولسـوف يكـون مجـرد خـاتم لا أكثـر في الإصبـع عندمـا يـرى الأنوثـة الطاغيـة مفترشـة سـبيله، ومعبقـة الهـواء الـذي يتنفسـه مـن حولـه.

ولكـن هـذا العنيـد يختلـف لكونـه واقـع بالفعـل تحـت تأثيـر سـلطان الحـب والرغبـة الجنونيـة المكبوتـة، ولكنـه يقـاوم، ويكابـر بفلسـفته البلهـاء، كانـت رحـاب تنظـر آنـذاك لفتاهـا العمـلاق وهـي تفكـر في بديـل لـه، أي بديـل، الأفـكار يجـب أن تتطـور، تتلـون، تتغيـر، وكان ربيـع يـدرك ذلـك تمامًـا في أعماقـه، وأن رحـاب تفكـر في اتجاهـات أخـرى بديلـة مـادام قـد وضعهـا أمـام هـذا الاتجـاه الإجبـاري.

(٨)

كان كلما نظر في ناحية ما وجدها أمامه، وعندما أغمض عينيه عنها لم تخبُ صورتها في جنانه بل زادت استعارًا كالنار في الهشيم، كان هو ذا إذن السبب الذي جعله يمضي قدمًا في رفقتها وكظلها خلال الاسبوعين المنقضيين، وغايته رضاها وراحتها ومجرد نوال ابتسامة من شفتيها الساحرتين، ولذات السبب نفسه كانت قواه تخور شيئًا فشيئًا، وبات على وشك رفع راية التسليم والارتماء راكعًا عند قدميها، إنه الحب المشحون بالخيال الملتهب والواقع الإنساني المادي والذي يجعل المرء يعشق امرأة حتى الجنون، ولم يدر ربيع وهو المرهف الحواس بضرورة أن يكون على علم كامل بكل ما يدور من حوله، وأن الفتاة قد نصبت له في سويداء نفسه كمين الفتنة الهائجة، في البداية لم ينتبه إلى كونه يأخذ من الفتاة موقفًا حادًا مثل زاوية عينيه السوداوين، وفي النهاية اكتشف حقيقة وجود كمين الفتنة الذي دقت رحاب أوتاده في شغاف قلبه، وما تلبث هذه الفتنة تفور وتتشظى كالبركان المنفجر في كل شراييه وخلاياه، فيستسلم طواعية وهو يبدي كل آيات العناد، وتصور ربيع الذي سحرته امرأة لعوب لوهلة أنه لو أدمن على تعاطي كل مخدرات

الدنيا لحداه الأمل أن يبرأ منها في يوم ما؛ أما ما فعلته الفتاة بنفسه فلا يكون هناك أي أمل في الحياة بدونها، ولو كانت هي الداء والألم والموت نفسه.

وكان قلب أم الزين يحدثها بأن الفتى قد مسه جان، كانت تجلس ساكنة على أرضية عتبة باب الدار المشرعة عن آخرها، ولكن أذنيها كانتا ترصدان توجعات الفتى وآهاته المكتومة، كان ينام في فراشه ساكنًا وهو يتقلب في داخله كالمجنون، وينهض كثيرًا، ويتجه تارة إلى النافذة المطلة على الحارة، وتارة أخرى يمسك بكتاب ما ثم يطوحه في الهواء بكل ما أوتي من قوة عصبية، وربما تخلى عن جلابيته الرمادية المقلمة عشرات المرات ليرتمي في داخل سرواله وقميصه ثم يمضي خارجًا، ولكن هيهات أن يقوى على نفسه، ويالها من لحظة عجيبة متناقضة في حياة الإنسان، أن يكون ضعيفًا وقويًا في آن واحد، أن يلعن الحب وهو يمجده من كل قلبه ويب فيه بانًا، وكان ارتداؤه ملابس الخروج فيعني التسليم، وتخليه عن ارتدائها فكان يعنى أنه ينتظر بفارغ الصبر أن تأتي لحظة التسليم الموعودة، لحظة البساطة المتناهية التي يتخلص فيها المرء من أحمال المقاومة، وترسبات المبادئ الصخرية المنتشرة في الجسد، ومن الجمود الأجوف الذي يحول بين الإنسان وبين ما يحبه، ولحظات

المتعة الأسطورية، كانت صورة رحاب وهي نائمة في أحضانه كالمَلك الوديع تداعب خياله، هو الشيطان يصور نفسه أحيانًا مَلَكًا كي ننخدع له وندخل محرابه ولا ندخل محراب الله، جملة كثيرًا ما كان يفوه بها محمد علوان في جلسات السمر والصحبة واللمة، وهل هذا وقت مثل هذه الكلمات وهذا الصوت؟، هكذا راح يقول ربيع في نفسه وقد عقد العزم سرًا على مصانعة الشيطان، والخروج من الدار والحارة والدنيا بأثرها إن أمكنه ذلك، فنادته أمه بصوتها الطيب وقالت متسائلة بمحض كلمات مبصرة:

- ربيع، ألست في حاجة إليّ؟.

فجثا ربيع على ركبتيه أمامها وقال وهو يقبِّل يدها وجبينها:

- ربيع دائمًا في حاجة إليكِ.

راحت أم الزين تمرر يدها بحنان جارف على خصلات شعر رأسه السوداء السميكة، لم يكن شعر رأسه ناعمًا ولكنه كان جميلاً أخاذًا مثل ملامح وجهه السمراء، وقالت وهي تكفكف عبرة انزلقت خلسة من عيني قلبها المتباطئ الدقات شيئًا فشيئًا وكأنه رُكب على عداد تنازلي:

- أحس بك يا ولدي، وأملي أن تذهب إلى المكان الذي يحبك وليس المكان الذي تحبه أنت.

ابتسم ربيع رغمًا عنه وقال لأمه:

- لم أكن أعرف أن أم الزين حكيمة هكذا!.

وحينذاك ترامى إلى الأسماع صوت سليط وهو ينادي من خلال مكبر الصوت الذي يعمل بالحجارة على بضاعته، كان صوته أجشًا ومستفزًا، وللمرة الثانية لم يتمالك ربيع نفسه من الابتسام الذي صار ضحكة مدوية وقال:

- ترى ما الذي دفع الناس إلى الجنون هكذا؟.
- الطمع والجشع وشهوة جمع المال من أي سكة وبأية حجة.
- والفقر أليس له أي اعتبار في نظرك؟.
- الفقر الفقر، ودائمًا الفقر، اللّه يلعن الفقر.

ثم تطلعت إلى لا شيء ولكأنما تصرخ صرخات مدمدمة، ويصرخ معها العالم المكلوم، وربيع يصيخ السمع بأذنيه المرهفتين، وعيناه مرسلتان وراء حجب الشفق القرمزي وقد جعل يضرب كفًا بكف، أي شيطان أنت أيها الفقر، وأي مَثَّال أعظم منك

في الوجود نحت كل هذه النماذج الشوهاء من البشر، والجهل والحرمان والأنانية والطغيان وخراب الذمم وفساد الضمائر، وهل سمر ولبنى ورحاب وسليط وغيرهم إلا صنائع يداك أيها الفقر الملعون، المرتشون، المتحايلون، المتسلقون، المبتزون، الانتهازيون، الكاذبون، المجرمون كلهم تخرجوا في مدرسة الفقر الشيطاني، كان السؤال الذي بقى متلألئًا يضوى في عيني الفتى وهو يتلفت حواليه بنظرة قُطرية لملمت أشلاء الوطن المتناثر في دائرة واحدة هو « هل نحيا في المكان الذي نحبه أم في المكان الذي يحبنا؟، وإلى أين ينبغي أن أذهب الآن، المكان الذي أحبه، أم المكان الذي يحبني؟».

مالت الشمس ناحية الغروب، وكانت شعاعاتها ترسم على المدى البعيد في لوحة الأفق الدامي صورتها العريانة، كانت لحظتها مخبأة داخل ملاءة ترتعش وهي تتصبب عرقًا من شدة حرارة الشمس المخلفة، وقد تمددت بطولها على الحصيرة الصفصاف الناشفة وراحت تتطلع إلى السماء، ولكن هذا مارأته بعيني الخيال، وأن العالم كله لم يعد بعد تخفي عليه حقيقتها المشينة، كانت جائعة وظمآنة وتتلهف على مجرد نفس من عقب سيجارة بال، ولم تكن تملك شيئًا تقتات به غير الاعتماد على نفسها، فلقد ذهب ربيع منذ أيام ولم يعد،

ولكنه سوف يعود، لأنه ليس أمامه مفر آخر سواي، ولاشك أن عودته لا تعني شيئًا غير أنه قد استسلم ليّ حتى النخاع، وأنه سوف يقبل عن طيب خاطر دور الثور الهائج الذي يحطم الدنيا كلها من أجل حبيبته الهيفاء، فالحب أعمى ويجب أن يظل هكذا إلى الأبد، أو على الأقل حتى أصل إلى غايتى، كانت هذه الخواطر الكثيرة وغيرها قد مرقت كالسهم في سويداء نفس رحاب لحظة سماعها صوت قلقلة المفتاح وهو يدور في خصاص باب المدفن، كان قلب رحاب يرقص طربًا وهي تنتفض واقفة لاستقبال فتاها الربيعي، ولسان حالها يكاد يصرخ فرحًا هاقد عاد ثورى العنيد، وعادت الحياة إلى شراييني لتجري جنبًا إلى جنب مع دمائى الفائرة.

فُتح باب المدفن وانكسر ظل الشخص الداخل في خشوع الزهاد على درجات سلم خيبة الأمل التي كانت تقف عليها رحاب، وهي التي كانت تظن منذ لحظات أنها قد لامست سقف السماء بيديها، ولم يكن أمامها حيلة لحظة ذاك غير أن تختبئ بسرعة قصوى، كان قلبها يدق دقات جنونية، وتملكتها رهبة غير طبيعية وقد توارت كلها وراء جذع السنطة القريبة من سور الجبانة، كانت ترتعش ارتعاشة الموت وهي تتمتم همسًا في سرها:

- ربيع لماذا تفعل ذلك بيّ، لماذا لماذا؟!!.

كان ربيع لحظتها يقف متردداً أمام باب شقة الفتاة أهداب في العمارة القديمة المتهالكة، كان قد قرر أن يأخذ بنصيحة أمه على الأقل في شقها الأول، وألا يذهب إلى مكان أحبه، أما شق النصيحة الآخر وأن اذهب إلى المكان الذي يحبك فلم يكن ينتظر شيئًا من الفتاة أهداب، بل لم يكن يتصور أن ثمة إشارة واحدة تدل على وجود ملائكة هائمة بالحب في سماء المكان، ولم يدر لماذا عاد فجأة من أمام مدفن الدراسة حيث حبيبته رحاب ثاوية فيه، ولماذا راح يضرب على غير هدى في طرقات المدينة المسعورة كالمجنون حتى قادته قدماه كالأعمى المقيد إلى هذه العمارة الكالحة في حارة المنسي، أو بيت العاهرة كما يطلق عليها أهل الحارة، تلفت حواليه بحذر ثم ولج مسرعًا إلى الداخل وهو يتعثر في سلال القمامة المنبعثة منها روائح نتنة لا تطاق، وقطيطات فررنَّ مذعورات وهن يَمؤن مواء المتحفزات للقتل، راح يقفز صاعداً في درج السلم المشققة المتآلكة الحواف حتى بلغ شقة السطوح المتواضعة للغاية، وبعد حيرة شديدة طرق الباب وانتظر، وطال انتظاره، وأحس بقبضة تعتصر قلبه، وأخذ يلوم نفسه لكونه جاء من غير موعد ولا سبب، كان يمقت العشوائية ويظنها هي داء العالم الثالث الحقيقي، وها هو ذا نفسه يتجسد شيطانًا عشوائيًا في لحظة فوضى عقلية

مقيتة، كان ربيع يشعر في قرارة نفسه بأنه بالفعل يمر بلحظة خلل جوهري واضحة الأبعاد، وأنه قد وقع في خطأ إصلاحه أصعب بكثير من التمادي فيه، وإنه وإن كان حظه قد أسعفه عند الدخول إلى هذا المكان الموبوء في نظر أهل الحارة ومن غير أن يراه أحد؛ فإن رؤيتهم له وهو خارج من العمارة لهي الفضيحة بعينها، رباه وهل يحتمل قلب السيدة الطاهرة أم الزين سماع همسات أهل الحارة ونميمتهم، تلك النميمة التي تبدأ شرارة وتنتهي نارًا لا قوة لأحد على إخمادها ولو شاءت النار ذاتها أن تنطفئ !.

ظل ربيع واقفًا بالباب وقد توقف عن طرقه، بل عن التفكير في أي شيء، كانت أذناه أثناء ذلك قد رصدت صوتًا ما خافتًا يأتي من الداخل، كان صوتًا غير طبيعي بالمرة، وكان يتعالى شيئًا فشيئًا، لم يجد ربيع تفسيرًا فوريًا لهذا الصوت المكتوم، فحاول أن يدفع الباب عنوة ولكنه كان مغلقًا بإحكام، أخذ يلف ويدور حوالين جدران الشقة الخارجية المطلة على السطوح المكشوف الملتصق بعمائر أخرى أكثر قدمًا وارتفاعًا وقصرًا، لمح من إحدى زواياه المنفرجة غير المحدودة منطقة الموسكي الفائرة بموجات من خلق الله، وأصوات الباعة وأبواق السيارات وإنْ غلب عليها جميعًا صوت شقيقه سليط وهو يهتف مناديًا على بضاعته:

- يام الزين يام الزين.

ولوهلة فكر ربيع الذي كان يتدثر بالظلمة التي راحت تنتشر ببطء شيئًا فشيئًا في الانصراف خشية أن يراه أحد الجيران، ولكنه اهتدى أخيرًا إلى نافذة موصدة في جانب الشقة الرابضة كالشبح، ولكن كان يمكن فتحها مع المحاولة، لحظات ووجد ربيع خلالها نفسه في قلب الشقة المعتمة الكريهة الرائحة، كانت حرارة الشمس المنسكبة بشلالاتها الذهبية فوق أنحائها المتفرقة طوال النهار جعلته يشعر وكأنه يمضي في قلب فرن بلدي رديء، كان الصوت يأتي من ناحية ما يشع منها ضوءً أحمر قانيًا وئيدًا، لم يصدق عيناه واللتان قالتا لخلايا مخه المضربة عن ترجمة شفرات الواقع وغمزاته ولمزاته المبتذلة، وهمساته الشيطانية، أنه يقف بقدميه في بيت الشيطان نفسه، زجاجات البيرة الفارغة، علب السجائر، الدولارات المتناثرة، الملابس الفاضحة الملونة بكل أشكال الفتنة والإثارة، الكاميرا المثبتة فوق شاشة جهاز الحاسب الآلي، وفتاة متجردة من أكثر ملابسها ملقاة أرضًا عند قدميه، ورنات متصلة تتبعث بين الفينة والأخرى من هاتف محمول ملقى في قلب راحة يدها المطوحة على أرض الحجرة المغطاة بألواح الموسكي العتيقة، نظر ربيع الذي سمره الذهول طويلاً في محله إلى الصورة الثابتة على

الشاشة، ساخنة في انتظارك، مع أهداب تحرز كل الأهداف، ففهم من فوره لماذا يرن الهاتف المحمول بهذا الشكل المحموم الجنوني، وكأنها طرقات جنونية باليد، طلقات رصاص عصبية، لامجرد رنة الهاتف التقليدية، أمسك بزجاجة بيرة ممتلئة حتى منتصفها، راح يدنى فوهتها من أرنبة أنفه كي يشمها، لم تكن مطلقًا رائحتها رائحة البيرة التي يعرفها جيدًا، وعندما أخذ منها بالكاد رشفة وجد أنها مياه عادية، وكانت أوراق الدولارات المنتشرة هي ذاتها الدولارات اللعبة المزيفة التي كان يشتريها برخص التراب من المكتبة التي كانت كائنة منذ زمن وليٍّ على ناصية الحارة لكي يلعب بها مع أقرانه، لعبة «حلم الثراء»، أفاق ربيع من غفوة الذهول التي رانت عليه طويلاً مع انتفاضة جسد الفتاة المسجاة عند قدميه وهي تتنفس كالمخنوقة:

- أهداب أهداب.

كانت عينا الفتاة ترنوان إليه بمعنى الموت الحتمي، كانت للقلب نعم دقاته الضعيفة، والأنفس تخرج بالكاد من طاقتي أنفها المدبب، والأدهى أنها كانت تستدعى سرًا من أعماقها ملك الموت الرحيم، وربما كانت تهمس إليه بشفتين ناشفتين كالحجر الصوان أو هكذا أحس بمشاعره المخدرة:

- إرحل، رائحتي الكريهة سوف تستدعى آلاف المخلصين لإلقائي في سلة النفايات، هه سوف يقولون كلب وراح، مرحاض وانكسر.

- أهداب أنتِ تموتين.

- تقصد لبنى كانت ميتة وهاهي تعود إلى الحياة.

ضحكت لبنى بالكاد وهي تكفكف عبرة تسللت خلسة من عينيها وقالت ساخرة:

- هه في جهنم وبئس المصير.

ثم صرخت صرخة مزلزلة وهي تتحامل على أوجاع الموت المتشبثة بتلابيبها، والتي كانت تسري آنذاك في عروقها عرقًا عرقًا:

- ربيع لا تفضح نفسك من أجلي، أنا من استدعيت الموت لا الحياة.

كان أهل الحارة يروون عجبًا عجابًا وهم يقلبون أكف الدهشة ببعضها البعض، وعربة التوك توك تمرق خارجة من الحارة وبداخلها مَنْ؟!، الزين ابن أم الزين وفتاته العاهرة العريانة الملفوفة بملاءة الفراش الحريرية؟!!.

كان محمد علوان ميممًا وجهه في اللحظة ذاتها شطر شاهد المقبرة المنتصب، وراحتا يداه مرفوعتان ودانيتان من ذقن وجهه، وملامسة صدره المنتفخ بالقوة والفحولة،وقد ترقرقت الدموع في عينيه، وهو يتمتم متضرعًا بالفاتحة على روح أموات العائلة، وفجأة لمح ظلاً شبحيًا مرتميًا على الأرض يأتي من وراء السنطة العالية التي كانت تغطي بفروعها الكثيفة مؤخرة ساحة المدفن، فتقدم ببطء شديد وهو يدنو من جذع الشجرة، كان لا يخشى الأشباح والعفاريت التي يشيع أهل المقابر أنها تخرج ساعة غروب الشمس ووقت حلول الظلام، وكانت رحاب تحبس أنفاسها وراء الجذع وقد أخفت وراء ظهرها مُدية حادة، كانت تعرف من سترى ولكنها انتفضت صارخة عندما رأته، كان محمد علوان ثابتًا وكأنه جبلاً من الثلج وهو يتطلع إليها وقد برقت عيناها للغاية مثل جمرتين من نار:

– لم يخب ظني منذ البداية، تصورت بالفعل أن في الأمر شيء ما غريب، ولكنني لم أتوقع أبدًا أن تكون إمرأة في الموضوع، وأنتِ بالذات!!.

قالها محمد وهو مطرق الوجه، وبصوت خفيض لم يخل من دهشة والذي أردف قائلاً:

– ربيع أعاد إليَّ مفتاح المدفن هذا الصباح، يبدو أن خلافًا ما قد دب بينكما.

لم تنطق رحاب معقبة على كلامه ببنت شفة، كانت مرتعدة الأوصال كدجاجة تنتظر لحظة الذبح والسلخ على يد فرارجي الموت الإرهابى، وتحفزت بكل طاقاتها الجنونية وهي تهز مديتها الحادة من وراء ظهرها العريان الذي كانت تتحدر عليه ذرات العرق اللامعة بكثافة، تنهد محمد تنهيدة عميقة وقال بنبرة ملآنة بالحيرة وقد استدار ماشيًا في الاتجاه المعاكس:

- لاأحب الخوض كثيرًا في سرائر الناس، كما لايمكنني البقاء هنا أكثر من ذلك، أخت رحاب لن أطلب منك الرحيل، ولكني سوف أعرف أنك قد غادرتى المكان عندما أجد سلة الطعام التي سأتركها لكِ أمام بوابة المدفن في كل صباح في مكانها كما هي.

وفي الصباح الباكر سمعت نقرة على الباب الخارجى، لم تنتظر طويلاً، هرولت مسرعة ناحية الباب وفتحته، وبلهفة التقطت سلة الطعام دون أن تتبين من أحضرها وقد كاد الجوع يقتلها، ويستولي على عقلها بالكلية، ويملي عليها قراراته الجنونية وأن تخرج ليأكل من سال زبد الشهوة على شدقيه من جسدها المترع بالفتنة الملتهبة فتشبع، أوإننا لسنا أفضل كثيرًا من القطط الهائمة والكلاب الضالة التي تنبش في قمامات الشوارع بحثًا عن حياة لا تشبه حياة البشر بالمرة.

(٩)

نمامات الحارة وقفن أسفل إفريز نافذة دار أم الزين مباشرة، ورحن ينعقن كغربان سود، ويخضن في قصة زين حارة المنسي ونوارتها والذي كان يمضي ليله ونهاره في بيت العاهرة الغامضة، الكئوس المترعة بالخمر، والضحكات المستهترة، والرذيلة التي فاحت رائحتها في الحارة، وأن من كنا نحسبه موسى ظهر كفرعون آخر الزمان، سمر ضاعت، وسليط تاه، وربيع جننته جنية فاجرة، لم تتمالك أم الزين نفسها، أمسكت بدلو الماء وراحت تكبه من النافذة على نسوة الحارة كبًا وهي تسبهن وتلعنهن:

- رحن في داهية يا غربان الشؤم.

جرت النسوة ضاحكات، وأخذن يصفقن ويغنين:

- حسرة عليها يا حسرة عليها.

جن جنون أم الزين وأمسكت بعصاتها الغليظة التي تتوكأ عليها، وهرولت إلى الخارج تجري وراء النسوة الفاجرات لتضربهن بها وهي تتعثر في ظلام عينيها، حتى سقطت أرضًا في الحفرة الطينية المتواجدة في قلب الحارة، وطار عكازها مع

صوابها، وقد تناثرت من حولها وفي كل ناحية من الحارة أثاث شقة الفتاة لبنى المتواضع، وأغراضها الشخصية وملابسها الداخلية، والتي كان البعض من أهل الحارة يلقون بها آنذاك بلا رحمة أو شفقة من فوق سطح العمارة العتيقة.

هزت رأسها صارخة وهي تنظر ناحيته وتقول له باحتجاج:

لماذا فعلت ذلك، هذا ليس شأنك، أنا حرة، وأنت قلت ليّ الحياة ليست اتجاهًا إجباريًا، وأن الإنسان يمكنه أن يمضي في طريق آخر.

كنت أحدثك عن السير في الحياة، وليس عن السير خارجها في اتجاه الموت.

هذا شأني وحدي، أنا من أحدد في أي اتجاه أسير.

هل كنت أتركك إذن تموتين كافرة؟.

ما أفعله أشر من الكفر نفسه.

هذا ليس صحيحًا.

ومَنْ قال؟.

الذي أرسلني إليكِ على غير موعد.

انفجرت لبنى في النشيج الحاد، وكان صوت سليط يأتي أثناء ذاك عبر نافذة المشفى الصغيرة الكائنة في اتجاه شارع الأزهر وهو يقول بسخرية ممضة:

- يام الزين يام الزين.

وكان صوت محمد علوان الهادئ العميق وهو يتحدث إلى ربيع عبر الهاتف المحمول قد بدل معالم الحياة في ناظري الفتى، كان يدعوه لكي يصلح خطؤه في صمت مع الأخت رحاب، وكان ربيع في واد لبنى فإذا بكلام محمد علوان يعيده إلى واد رحاب العوضي، فصرخ محتجًا وطلب من محمد أن يتريث في إطلاق أحكامه حتى يلتقيا في أقرب فرصة ويشرح له كثيرًا من الأمور الخافية عليه، فليس بينه وبين رحاب أي شيء غير رابطة الزمالة، ولجوئها إليه لكي يساعدها في حل مشكلة ما تخصها هي وحدها ولا تخصه هو، ولكن كان أكثر ما آلم الفتى حقًا تلك المكالمة الساخرة التي تلقاها من صديقه هيثم القللي، كان هيثم قد عرف من جيران لربيع في الحي وزملاء له في الجامعة بحكايته مع الفتاة لبنى، وأن البلد كلها لا سيرة لها الآن غير الحديث عن حكاية العاشقين قيس ولبنى، والليالي الحمراء الخوالي، والجري واللهو واللعب مع فاتنة الموسكي والعتبة وحي الأزهر والحسين ومصر القديمة، ولم يجد ربيع بدًا في النهاية غير إغلاق هاتفه بعصبية في وجه الفتى العابث المستهتر هيثم

والـذي كان لحظتهـا يذكـره سـاخرًا بـألا ينسـى نصيبـه في قطعـة اللحـم الأبيـض المشـفَّى، فالحيـاة لـم تكـن تزيـد في ناظـري هيثـم عـن مجـرد كأس وسـيجارة وفتـاة، ولـم تهتـز شـعرة في مفـرق رأسـه وصديقـه ربيـع يخبـره بـأن الفتـاة بائسـة يائسـة لهـا ظروفهـا الخاصـة المعقـدة، وكان بينهـا وبـين المـوت قيـد أنملـة واحـدة، بـل ربمـا كانـت ميتـة بالفعـل، ولكـن للقـدر تدابيـره وتراتيبـه التـي لا يعلمهـا أحـد غيـر اللّه.

أمـا الصـوت الـذي كان يحبـه ربيـع ويخشـاه، صوت أمـه الطيب الحنـون المتدفـق بـكل معانـي الحـب والرحمـة الإنسـانية، فعندمـا عـاد متأخـرًا إلـى البيـت لـم تنطـق بحـرف واحـد، قامـت فقـط تعـد لـه الطعـام مـن سـكات، كانـت متأكـدة أنـه لـم يـأكل شـيئًا مـن مغربيـة ليلـة أمـس، مـن اللحظـة التـي شـاهده فيهـا أهـل الحـارة يخـرج مـع السـاقطة مـن بيتهـا، جلـس ربيـع إلـى الطبليـة الخشـبية يـأكل هـو الآخـر صامتًـا وهـو يتطلـع إلـى أمـه، كان قـد علـم بمـا فعلنـه بهـا نسـوة الحـارة عصـر اليـوم، وكيـف خرجـت منفعلـة لكـي تلقنهـن درسًـا في الأدب مـن أجلـه فسـقطت في وحلـة الطريـق، كان لا يـدري مـاذا يقـول لهـا، أمسـك بيدهـا وهـي تضـع أمامـه كـوب الشـاي وقـال:

- ألا تريدين شيئًا مني يا أمي؟.

فقالت بجفاء جم:

- أريدك طيبًا تصبح على خير.

- وأنتِ بخير.

اتجهت إلى ركن خفي من الدار، ثم ارتمت بجسدها الناحل في الكنبة البلدي ذات السحارة المهشمة، وظلت جالسة وهي تتطلع إلى لا شيء وكأنها تمثال من الجرانيت، وفجأة ترامى إلى مسمعيها صوت خطوات ما عفرت ساحة الدار الخارجية بذرات التراب ومن يقول:

بصراحة أنت أصبحت فتى ذا سمعة سيئة في المنطقة كلها، وأنا تاجر وأخشى على سمعتي وتجارتي وبيتي وعيالي، ولابد أن ترحل من هنا إلى الأبد.

ارحل؟!!.

يمكنك العودة إلى بلدنا القديم أرمنت الحيط.

ولكني ولدت هنا ولن أموت إلا هنا.

وما ذنبي أنا، أهل الحي يتندرون بيّ بسببك في روحهم وفي غدوهم، ويسمعونني ما لا أحب أو أطيق، وكفى ما نالنا من المحروسة أختك.

لوكان الأمر يتوقف على ما نسمعه يا سيد سليط عن الآخرين لكنت أنت أول الراحلين من هذا البلد منذ زمن بعيد.

جاء صوت سليط عاليًا وهو يضحك وقال:

- ومن قال أنني أريدك أن تغادر مصر، أنا أحببت فقط أن أريك نفسك في المرآة، نفس المرآة التي وضعتني أمامها من قبل، ولن يكون هناك غيري يقف معك ضد من يسبك ويعيرك، ويتحمل من أجلك كل سخافات أهل الحارة والبلد بأسرها، ويمد إليك يده كي نكون معًا إلى الأبد ضد الدنيا كلها، السوق غدار ومن المستحيل أن تعطي ظهرك لأحد فيه وأنت آمن على نفسك، سوف أكون ظهرك الذي يحميك ولتكن أنت أيضًا كذلك.

- أخرج من هنا أيها الشيطان.

قالت هذه العبارة الأخيرة أم الزين وقد اندفعت إلى ساحة الدار الخارجية وهي تلوح بعصاتها، وتدفع بكعبها الملتاث بوحلة الأرض سليط من كتفه زاعقة:

- انصرف انصرف، انصرف من هنا أيها العاق.

أمسك سليط طرف العكاز بعصبية وقال:

- قبل أن تصرفينني اصرفي أولاً الجنية التي ركبت ابنك الزين.

كان سليط على وشك أن يدفع بحدة متناهية طرف العصاة التي تمسك بطرفها الآخر أم الزين، ولكن ربيع اندفع مسرعًا وهو يمسك بأخيه من تلابيبه قائلاً:

- حذارِ أن تفعل ذلك.

تبادل الشقيقان النظرات التي تحمل الكثير من المعاني، نفخ سليط من جوفه المستعر كرة من لهب الغضب وهو يتعوذ من الشيطان بنبرة إدعائية، ثم قال بصوت خفيض وكأنما ليخص أخيه وحده بالحديث:

- لدى أعمالي الكثيرة بعيدًا عن هنا في الجيزة، وهناك أفضل من هنا، لا ثرثرة ولا نميمة ونظرات تحرق الأعصاب، فكر مليًا في الأمر.

وقبل أن يستدير سليط منصرفًا جذبه ربيع من ساعده وهو يقول له مبتسمًا بسخرية وبذات الصوت الخفيض:

هل أقدم مع مسوغات أوراق تعييني شهادة حسن سير وسلوك، أم أن وظيفتك الرفيعة لا تقبل إلا الساقطين أخلاقيًا مثلي؟.

لا تستخف بعرضي، الدنيا دوارة مثل الساقية، ولسوف نرى يا ابن أمك.

قالها سليط ثم مضى في سبيله خارجًا وهو يحدج أمه بذات النظرة النارية وقد شرعت تبصق في أثره وتلعنه، ثم استدارت منسحبة من المكان، ولكن ربيع لحق بها وهو يمسكها بيديه من ذراعيها برفق وحنان دافق، ثم ارتمى عند قدميها يقبلهما وهو يبكي بلوعة شديدة، فقالت أم الزين وهي ماتزال محتفظة بثباتها ونظرتها الشامخة التي تسددها دائمًا إلى أفق عالمها هي لا عالمنا نحن:

أنت أهملت دروسك وعملك يا ولدي، دعك من النسوان وما يأتي من ورائهن.

أقسم لك يا أمي أنني لم أفعل شيئًا يغضب اللّه أو يغضبك.

لقد حذرتك من قبل من هذه الفتاة المشبوهة، ولكنك لم تعِ بعد حكمة ما يقوله الكبار.

ساقني إليها القدر رغمًا عني.

ساقك إلى شقتها، حجرة نومها !!، لعلك تقصد الشيطان لا القدر.

نهض ربيع متكئًا على ساقيه وهو يرنو عاليًا ناحية أمه وقال فيما يشبه الهمس:

- العالم كله قد لايعرف من هو ربيع حق المعرفة، ولكن من أحست بيّ وأنا لم أزل بعد مجرد نطفة صغيرة كالذرة في حشاياها، وعرفتني قبل أن أعرف نفسي لاتردد أبدًا سخافات القالة وظنونهم الواهية.

لم تنطق الأم بكلمة واحدة، كانت تصغى إليه بأذني قلبها، وهي هائمة بنظراتها في فضاء عالمها اللامحدود، كانت صورته التي تعرفها عن ظهر قلب من خلال عينيها لفتى دون الخامسة من عمره، ولما كف بصرها كانت ترسمه في مخيلتها بريشة هواها وهي لا تشك أبدًا أنها تشف من الواقع، كانت تشف روحًا أسطورية أكثر من كونها تخط بريشتها في صفحة الأفق اللبني إستطالة وجهه وذقنه المدببة التي يقطعها شق الحسن الفريد في نوعه، وتفاصيل عينيه وأنفه الدقيق وثغره البسيم وخصلات شعره الخفيفة غير الناعمة، وكثيرًا ماكان الفتى يشعر بأن أمه من فرط إحساسها به تبصره حقًا وأنها تدعي العمى، بل كان في هذه اللحظة ذاتها يشعر أنه يقف عريانًا ولا شيء يستره أو يصدقه في هذا العالم الشبحي الكئيب غير قلبها الدافئ الحنون.

كانت تتقدمه هي، تأخذ بيده شاقة بعصاتها الغليظة حشود المارة والمتسكعين في الطرقات وكأنه هو الكفيف لاهي، ومن بعيد أتى صوت سليط عبر نافذة المشفى القديم وهو يهتف:

- يام الزين يام الزين.

وكانت أصوات نمامات الحارة ملء أسماع الوجود، وكان سريرها خاليًا منها على غير المتوقع، وعلى وسادته بدت لفافة ورقية بيضاء صغيرة، انتشلها ربيع بسرعة، وبلهفة منقطعة النظير راح يفرد صفحتها القانية أمام عينيه، وجعل ينصت إلى كلماتها المنسكبة بيد مرتعشة على صفحة الأفق الملطخة بالغيوم السوداء: «ربيع لاتجعل فتاة يستدعيها الموت تتشبث بالحياة مرة أخرى، فكلانا يبغض الآخر ويحاول أن يلفظه من أعماقه، لاتضيع وقتك هباءً مع دفعات القدر القوية، لاتمض في طريق فتاة عابثة وأنت الذي تعرف طريقك جيدًا، وعلى أية حال شكرًا لمحاولة إنقاذك لحياة فتاة سيئة السمعة، فتاة تلاشت في متاهات الفضاء الإفتراضي، وتركت نفسها دمية لعصابات العُهر الإلكترونية المجهولة ذات الأرقام الصفرية الكثيرة، ورنات هواتف طويلة لحوحة، وكلمات تخدر الأعصاب، وتدغدغ الحواس، وترسم حلمًا جميلاً فسفوريًا على وجه الواقع الأسود الكئيب، فتاة كانت تلعن الفقر وهي اليوم تتحسر عليه وترجوه ألا يلعنها، ربيع شكرًا لك ولكن كف عن ملاحقة القدر الذي يضعنى كثيرًا في سبيلك، أرجوك حاول.. لبنى».

قالت وهي تحملق بعيدًا في وجوه نمامات حارة المنسي المتشحات بالملاءات البلدي المزركشة الألوان كالببغاوات:

- الناس لهم الظاهر يابني، ولايملكون الأبصار الثاقبة التي تتمعن في سرائر الأشياء، إنسها، ولاتفكر في البحث عنها مرة أخرى.

استدارت أم الزين خارجة من المشفي وهي رافعة الرأس، وفي أثرها كان ربيع يمضي مطأطئاً رأسه، وعيناه تدوران في محجريهما لأعلى تتبشان في أكوام البشر، ووراء جدران عمائر الموسكي الكالحة، وفي شرفاتها العالية، وانسابت نظرات عيناه رغمًا عنه إلى آماد بعيدة أسطورية ولكأنما تفتشان عن سراب، وصوتها العَيِيُّ كهمس الموت يتردد صداه في أذنيه « ربيع لاتفعل أرجوك».

لم يكن ربيع قد نسيَ رحاب، وإن غفا عنها سنة من الزمن ذكرته بها وسادة فراشه، وجدران عالمه السرى، وذرات الهواء المنتشرة التي تحمل رائحة عطرها، عرقها، وزفرات فمها الساخنة المتصاعدة من جوفها، وحتى وهو يفكر في الفتاة لبنى كان يراها هي ولا يرى غيرها، وهي تهمس في أذني خياله المتمرد بشفتيها الملونتين بلون أصابع الشفاة الأحمر القان كدم الغزال:

- إلاي ولتتس العالم كله.

كان من المستحيل أن يتوقف بحثه عن الفتاة لبنى وإن خدرته همسات معشوقة نفسه رحاب، لأنه من المستحيل ذاته أن يقف المرء أمام طبيعته، طبيعة الإنسان هي اتجاهه الإجباري، وسبيله الذي لايملك حياله القدرة على تغيير إتجاه المسير،

كان ربيع يتحطم في داخله كلوح زجاجي هشمته يد التناقض الهوجاء، الإنسان حر مخير وإن كست معالمه أمارات الجبرية، فلم يسمع أن أحدًا من البشر قد خلق على هواه أو اختار من قبل لونه، وطنه، أهله، أوالصور الغريبة التي نراها تنسكب علينا وأمامنا وحولنا في الطرقات، والتي بيدنا نعيش أو لانعيش في طلاسماتها المبهمة، ونصبح أو لا نصبح مجرد خطًا هلاميًا من ملايين الخطوط العشوائية التي تشكلها وتلونها لحظة الحاضر المقيت، وتظهرها من عالم العدم إلى عالم الوجود السرمدى، كان ربيع مثل العبد الأسير الحر، يحاول أن يكسر طوق العبودية، يحاول بالفعل أن يوقف عقله عن التفكير في الفتاتين، فتاة لم تعد فتاته التي يحبها من كل قلبه، وفتاة بكت نفسه طويلاً ليس من أجل إنسانيتها التي دهستها خطوات أقدام الواقع الثقيلة الوطء، وإنما من أجل رغبته المجهولة في محاربة الشيطان نفسه، الشيطان بكل أشكاله وتحوراته، الشيطان الذي هو الشر المستطير، وأثناء محاولاته المستحيلة تخليص نفسه من خيوط شبكة قدره الإفتراسية وجد نفسه يستسلم شيئًا فشيئًا، فقام من فراشه بشكل عفوي فجائي، ارتدي ملابس الخروج، ودس قدميه في نعليه وهو لايدرى إلى أين ستمضيان به في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

(١٠)

كانت لعبة الجنون الحقيقية قد بدأت، من ساعتين اثنين فقط أسمعته صوت جنينها الذي شكلت معالم وجوده قطرات منيه النتنة الدافئة، سكت عزيز الباشا طويلاً حتى ظنت رحاب أن خط الاتصال قد انقطع بينهما، وأنه لا بأس من أن تطلبه مرة ومرات على رقم هاتفه السري الذي لايعرفه غير الخاصة من الناس، ولكن الرجل باغتها بالقول:

لِمَ لا تحضرين إليّ بنفسك ونتفاهم.

لست بلهاء ياسيد عزيز حتى أوافق على مواجهتك وجهًا لوجه، سوف أظل كامنة لك في الخفاء كشيطان يقض مضجعك، ويؤرق منامك، سوف ألاعبك من عالمى السري، وأحركك كيفما يحلو ليّ.

فجاء صوت عزيز عبر الطرف الآخر ثقيلاً مبحوحًا:

- وما الذي يجبرني على ذلك.

- ابنك الذي أحمله في بطني، ونتائج الفحوصات الوراثية الـ DNA والتي سوف تثبت أبوتك المؤكدة لابنى، وقرار

المحكمة والفضيحة والناس وكلام الناس، وامبراطورية عزيز الباشا.

ضحك عزيز ضحكة طويلة غلب عليها الإفتعال العصبي وقال:

عشنا ورأينا السمك الصغير وهو يأكل السمك الكبير.

بدلاً من الثرثرة كثيرًا ولعنك الحظ الذي أوقعك في براثن فتاة ريفية عشوائية فقيرة عملت بكل تفان في حملتك الإنتخابية وعرفت عنك أكثر مما ينبغي أن يعرفه أحد، حاول أن تفكر جيدًا في وسيلة نختصر بها المسافة بيننا.

رحاب أنا رجل نظيف، الدنيا كلها تعرف ذلك، ولن أسمح لمبتزة حقيرة مثلك أن تروج عني الشائعات.

لعبة مناقصة أرض المقطم والتي رسيت عليك بالأمر المباشر يمكننى أن أرسل إليك تفاصيلها على إيميلك السري، وصوتك وقد انتحيت بمعالي الوزير فلان الفلاني جانبًا وأنت تشكره في مقر الحزب على حسن تعاونه معك، هذه واحدة والبقية تأتي.

سكت عزيز وكأنما انقطعت أنفاسه، لم يكن يتصور أبدًا أنه قد وقع في أحابيل امرأة لعوب خطيرة إلى هذا الحد، كان يتصور أنه قد أمضى ليلة حمراء وحسب ثم سرعان ما يطفئ

لهيبها الشبقى دوران عجلة الليالي والنسيان، كانت رحاب ماضية في خطتها والتي رسمتها بإحكام شديد وقالت مستطردة وكأنما هي على اتصال بوساوسه وخطراته ذاتها:

لاتتصور أنني مجرد نزوة عابرة، أسلمتك نفسي بمحض اختياري، وطبيعي أن تفكر في وسيلة ما للخلاص من هذا الكابوس الذي ظهر لك فجأة، لكن لا أنصحك بذلك.

وبِمَ تنصحينني إذن؟.

أن تأتي راكعًا مثل الثور الوضيع عند قدمى وتضع عنقك بنفسك في طوق الرسن الذي أمسكه لكِ بيدي.

نفخ عزيز على طرف الخط الأخر نفخة غيظ نارية وقال وهو يحاول أن يبدو متماسكًا:

- عزيزتي هذه ليست وسيلة للتفاهم أبدًا.

- الرسن أهون كثيرًا من الذبح، فكر مليًا في الأمر.

قالتها وهي تقطع المكالمة وقد انفجرت في الضحك، وبسرعة راحت تخرج الشريحة من الهاتف وتستبدلها بأخرى، ولكنها فجأة سمعت طرقات متقطعة على باب المدفن الخشبي، إرتعبت وتجمدت الدماء في عروقها وهي تتساءل في نفسها هل

من الممكن أن يكون عزيز ورجاله قد وصلوا إليَّ بمثل هذه السرعة الخارقة، راحت تطمئن نفسها وأنه ربما يكون محمد علوان قد أغراه شيطانه وانتظر حتى يجن الليل لكي يفعل بها الأفاعيل، ولكنها تذكرت أن نسخة مفتاح المدفن معه فلِمَ لم يدخل مباشرة إن كانت هذه هي نيته فعلاً، وهل يستأذن الذئب من فريسته قبل أن ينهش لحمها، كانت تجلس القرفصاء فوق الأريكة متكشفة، هبت مسرعة في خفة غزال بري في اتجاه كوة جانبية في الحائط ونظرت من خلالها لتستوضح الأمر بنفسها، رأت عند مدخل المدفن الترابي المرتفع عن الطريق في الخارج شبح رجل عملاق يقف ملتصقًا بالباب، كان مترددًا بين البقاء أو الانصراف، لم تمهله رحاب الفرصة كثيرًا لمصارعة أفكاره المتناقضة، واندفعت ناحية الباب وفتحته ثم ارتمت في أحضانه باكية بالدموع وهي تتمسح فيه وتكاد تصرخ:

- كنت أعرف أنني لن أهون عليك، وأنك سوف تعود.

- الناس !.

قالها ربيع وهو يدفعها برفق ناحية الداخل، ويغلق في الوقت ذاته الباب بكعب قدمه الخلفي، فقالت رحاب بعصبية وقد انهالت عليه بسيل من القبلات الساخنة:

- الناس الناس الله يحرق الناس.

كان ربيع قد خدرت مشاعره تمامًا حرارة اللقاء، وسرت في أوصاله سخونة اللذة، الحب، الأنثى، الجمال الفتان، الشهوة والرغبة الجامحة كلهن مسكرات يذهبن العقل تمامًا، ويحطمن أفئدة أعظم الرجال قدرة على التماسك في مثل هذه المواقف الشبقية، لمَ لا ورحاب كانت تبدو أمامه مثل دعوة مفتوحة لحضور حفل بغاء شيطاني، وكان من يرى ربيع وهو يتراجع إلى الوراء ناحية الأريكة الخشبية يتصور أنه في لحظة تسليم جبرية لحصون إرادته وقلاع مقاومته، وكلما دنت منه كانت حرارة أنفاسها تلهب وجهه وجسده المشعر العريان، ومن طاق خفي في ستر عالمه المخدر لمح عسَّالة حاذقة تغشاه، تتعاطاه، وبيد أنثى محترفة تهجم وتتمادى، تتريث وتتمنع، ولكن فجأة أفاق من سكرته، دفعها بقوة بعيدًا عنه، وقال وهو يلملم أشلاء ملابسه المبعثرة بيد عشوائية اللحظة الهائجة:

- لم آت إلى هنا من أجل ذلك.

- بل لم تأت إلا من أجلي.

حاولت رحاب أن تعيد كرة الهجوم الشهواني ولكن ربيع كان صلبًا في قراره هذه المرة، والذي أدار وجهه بعيدًا عنها وقال بنبرة حازمة فيها إرتعاشة رغبة مكتومة:

- من فضلك ارتدى ملابسك.

شرعت رحاب في ارتداء ملابسها وقالت وهي في غاية العصبية:

لِمَ جئت إذن؟!!.

لا أعرف، والمجيء وعدم المجيء الأمر سيان عندي، كلاهما نتيجتهما واحدة الندم.

أي تخريف هذا؟!!.

رحاب هذه هي الحقيقة، ظهورِك في حياتي أربك ليّ كل حساباتي، وجعلني إنسانًا آخر غير الذي كنتِ تعرفيه جيدًا.

هذا فقط لأنك تعاند الواقع.

بل الواقع هو الذي يعاندني دائمًا، يضع الأشياء الغريبة فجأة في سبيلي فلا يكون أمامي غير أن أصطدم بها كالأبله أو تصطدم هي بيّ، أي لا مفر من الصدام في كل الأحوال.

وما دمت تعرف هذه الحقيقة فلِمَ لا تضع يدك في يدي ونطهر البلد من عزيز الباشا وأشباهه.

بل أحسب أن البلد تقول الآن متى أتطهر من عزيز الباشا وأشباهه، وكل الطفيليين الأوغاد الذين صنعهم شيطان اسمه

الفقر، وحلم دنيء اسمه الثراء؛ الثراء من أقصر الطرق وبأية وسيلة.

سكت ربيع برهة ثم استدار ناحية رحاب وقال مستطرداً وهو يمسكها من ذراعيها:

- رحاب تساءلتي إليّ قبل قليل ما الذي أتى بيّ إلى هنا الآن، والجواب هو أنتِ، أجل أنتِ، ولماذا أنتِ تحديداً؟، سوف أجيبك بذات السؤال لماذا أنا تحديداً؟، ولماذا أنا دونًا عن الجميع؟!!، لأن للمرأة إحساسًا أسطوريًّا يرشدها إلى القلب الذي يخفق سرًا من أجلها، ولو لم يعرها صاحب هذا القلب العاشق مجرد إلتفاتة واحدة، قلب شاء صاحبه ألا يجهر بهذا الحب، أن يضمره في نفسه، وأن يموت به سرًا، ولكن أجهزة المرأة السرية الفتاكة تعرف أحيانًا ما لا تعرفه أعتى أجهزة المخابرات في العالم، أجل أنتِ كنت تعرفين كل شيء عن شاب يتوارى منك في الزحام خجلاً، كثيرون غيري كانوا يقتربون منك لاعتقادهم أنك فتاة سهلة المنال، أما أنا فلقد كنت أبتعد لأنني كنت متأكداً أنكِ فتاة صعبة لا يمكنني أن أنالها بهذا أبداً.

قالها ربيع وهو يشير بقبضة يمينه إلى قلبه عدة مرات، كانت رحاب ساهمة وعاجزة عن التفوه بمجرد كلمة واحدة، وهي في قرارة نفسها تعرف أنها لا تحبه، ولا تحب غيره، ولكنها

في الوقت ذاته كانت واثقة من أن لا أحد غيره في هذا العالم الصاخب قد أحبها حبًا بريئًا طاهرًا كذلك الحب الذي يطويه بين جناحيه، كانت قد رصدت بأجهزتها الجبارة ذلك الحب الذي يكنه لها في الخفاء، فقررت أن تلقي بشباكها عليه، وأن تستعمله في تحقيق خططها الرهيبة لكونه أصلح من يقوم بمهمة السلاح الذي يمكنها أن تحركه من الخفاء لابتزاز الرجل الجبار الداهية عزيز الباشا، وكفى بالحب رسنًا تطوق به أعناق العشاق، يشد ويرخي، يطلق ويقيد، ويجعل صاحبه يمضي في اتجاه واحد لا سواه ومهما قدم من تنازلات وتضحيات، بل مهما كان عنيدًا ومكابرًا، كانت رحاب تراهن على أن ربيع قد جاء ليضع بمحض إرادته الرسن حول عنقه، ولكن عزة نفسه كانت تأبى عليه إلا أن تتم واقعة التسليم تحت أي مسمى آخر يحفظ له كبرياءه، وقناعات رأسه المتحجرة بأنه لا شيء في الحياة يجبر الإنسان على أن يخضع أو يذل، وليس ببعيد أن يقف موقفه هذا عزيز الباشا ذات يوم، والذي ابتدرته الفتاة بهجمة شرسة منذ ساعتين طيرت صوابه، وشلت تفكيره، ولعله راح يراجع حساباته، ويضع يده على مواطن الخلل في منظومة أعماله الأسطورية، وأن هناك من عرف عنه أكثر مما ينبغي، فيصل بنفسه إلى حقيقة أنه لا مفر أمامه لإنقاذ سمعته وإمبراطوريته العملاقة من الانهيار التام غير تسليم

رقبته طواعية لفتاة قروية قحة، تلك الفتاة اللعوب التي باتت حياتها مهددة بالخطر، بل كان القتل هو الشيء الوحيد المؤكد أنه في انتظارها، وأن من يلعبون بالنار يعلمون جيدًا أنهم أول من يتكُون بها إن لم يحسنوا اللعب، ويجيدوا تسديد الضربات القاتلة في الوقت المناسب، وأن عزيز الباشا من البديهي أنه يفكر في التخلص منها بأية وسيلة كانت، وهي من تزعم أنه ابنه الكائن في بطنها من صلبه ولحمه ودمه إلى الأبد، رحاب العوضي كانت بالنسبة له مجرد نزوة في خلوة من خلوات الفجر الحمراء الكثيرة التي أمضاها في حياته ويجب ألا تزيد عن ذلك، أما غير ذلك فلا مفر من أن يكون الموت هو مصيرها الحتمي، ورحاب عندما وضعت خطة الهجوم على عزيز الباشا كانت تعلم جيدًا أنه سوف يفكر في اتجاه واحد إجباري لا غيره؛ هو التخلص منها إلى الأبد، ذلك الاتجاه الواحد الذي وضعته فيه ووضعت نفسها فيه كذلك، وأنه لا مفر من الصدام حتى تنتصر إرادة واحدة في النهاية، كانت رحاب تراهن على أن إرادتها هي التي ستنتصر، وكانت تعد العدة وتتفنن في حيلها من أجل ذلك، وكان عزيز الباشا يرفع قبضته لأعلى، المال القوة النفوذ هي العلامات الفارقة التي تنبئ بالنصر قبل أن تبدأ المعركة، أية معركة.

(١١)

في تلك الليلة الليلاء كانت مثل فرس جامحة في مضمار حريري أملس لا يمكن إيقافها أو ملاحقتها بسهولة، ولم تشفع له الأقراص الزرقاء، والوصفات الشعبية، ودعوات المنافقين المزوجة بالغمزات واللمزات الخفية، كانت لم تتخط بعد العشرين من عمرها، وكان شعره الناعم المصبوغ باللون الأسود الفاحم يواري بياض سنوات عمره التي تجاوزت الخامسة بعد الخمسين، وكسرات وندوب في الوجه وتحت العينين والعنق لم تداوها تمامًا عمليات التجميل وتبييض البشرة وغذاء ملكات النحل، كان الفارق بينهما في كل شيء شاسعًا للغاية، في الثراء، في العمر، في المستوى الاجتماعي، وفي الفراش كذلك !!، كانت ضحكاتها الساخرة منه ماتزال ترن في أذنيه، وكلماتها النابية الخادشة للحياء، وكان هو يوارى خجله بابتسامة مفتعلة وقد أولاها ظهره وشرع يتجرع مع الخمر مرارة الهزيمة في مضمار الهوى الوردي، دنت منه، ولفت وسطه بذراعيها الأملسين، ودست شفتيها القانيتين في أذنه وهمست قائلة:

- زيزو لِمَ لا نحاول مرة أخرى.

- هل أنتِ متأكدة حقًا أنك فتاة جامعية.

ضحكت رحاب ضحكة متجردة من كل معاني الحياء، وجرت إلى الفراش الوثير وارتمت فيه وهي تسحبه من أطراف الروب دي شامبر الأحمر كليلته العبثية وهي تقول بدلالٍ أنثوي طاغ:

- محاولة سيئة أفضل من لا شيء.

كلماتها، أنفاسها الساخنة، ارتعاشة يديه، سحب دخان السيجارة المنتشرة في سماء الغرفة مثل جنيات أسطوريات، ونظراته المسلطة على هاتفه المحمول ذي الأرقام السرية، حالة من الترقب العصبي، كانت رحاب قد انقطع اتصالها بعزيز الباشا لعدة أيام بعد أن كانت تلاحقه بشراسة متناهية، وفي كل مرة كانت تبوح له عن سر جديد من الأسرار الكثيرة التي عرفتها عنه، وكل سر من هذه الأسرار كان وحده كفيلاً بتلويث سمعته وتدمير حياته السياسية والعملية إلى الأبد، وفي المرة الأخيرة فاجأته بأنها تعرف الكثير عن أصوله العائلية، وأن عزيز الباشا هو في حقيقة الأمر ليس إلا عزيز القرداتي حفيد جد العائلة الكبير حمودة القرداتي في أطلال مصر القديمة، وجدته رباب الغازية الغجرية النَوَرية التي كانت ترقص بالخيش والصاجات في سرادقات الموالد والأحياء الشعبية، كان عزيز مبهوتًا وشاردًا وعلى غير طبيعته التي ألفها منه الأقرباء إليه والبعداء عنه

كذلك، ولم يعد الرجل القوي الميت القلب الذي كان يجلجل في القاعات والصحف والإعلام بصوته الجهور غير آبه بأحد ولا أي شيء في البلد، وكان يلقب بالرجل الحديدي الديناصور، أما رحاب فكانت لا تدعوه إلا بالرجل الفأر، القرد ابن القرداتي ، نظر عزيز إلى هيئته المكسوة بعلامات الذبول الطاغية طويلاً في المرآة وهو يتساءل إلى نفسه بعشرات الأسئلة:

- هل أصبحت حقًا مجرد فأر مذعور لا الرجل الحديدي القوي، وهل سأترك مصيري ومجدي وإمبراطوريتي رهن قبضة هذه الحشرة القذرة؟، ولكم سيسعد خصومي في عالمي السياسة والاقتصاد نبأ سقوطي على هذا النحو المدو، وماذا عن زوجتي وأبنائي؟، وهل سينتهي أمري عند هذا الحد السخيف؟، وهل مجرد نزوة عابرة تفعل بيّ كل هذه الأفاعيل العجيبة؟!!، لا لا لابد أن هذه الفتاة الدنيئة قد دفعها خصومي الملاعين في سبيلي لإسقاط إمبراطورية عزيز الباشا الرهيب الذي يقف كشوكة في حلوقهم، أو قد تكون هذه الفتاة تعمل لحسابها الشخصي وتلعب معي لعبة المساومة القذرة وحرب الأعصاب من أجل الحصول على أكبر قدر من المكاسب؟!!.

كادت رأس عزيز تنفجر من كثرة الأسئلة التي لا أجوبة لها، وأصابته لوثة من الجنون وهو يفكر في صورته البشعة وقد قبل

بخنوع أن يصبح ثورًا يضع عنقه باستسلام في طوق الرسن الذي ستسحبه منه فتاة رخيصة ساقطة كيفما شاءت وإلام تشاء، وفجأة رن جرس الهاتف المحمول رنينًا متصلاً قطع حبل سكون الليل المسهد، كانت نمرته الخاصة هي التي ترن برقم لا يعرفه، لم يشك لحظة في أن رحاب العوضي هي التي تطلبه، ضحكت رحاب على الطرف الآخر ضحكة طويلة مستفزة وهي تقول:

- كيف حالك يا عزيز يا قرداتي؟، لقد أوحشني صوتك للغاية، بالمناسبة قل لمخبرينك البلهاء لا يجهدون أنفسهم طويلاً في تتبع رقم الطالب فلقد جعلتني لصة موبايلات على آخر الزمن، والمغفلون كثر وأنت أكثر العارفين بذلك، واختصارًا للوقت أنا أحدثك الآن من المقطم ومن خلال هاتف مسروق، وغدًا من الزاوية الحمراء، وبعد غدٍ ربما من أسوان.
- رحاب كفي عبثًا، وعزيز الباشا.....
- يا باشا يا باشا.

قاطعته وهي تضحك ضحكة ساخرة مبتذلة، ولكن عزيز أمسك أعصابه قبل أن تنفلت، وقال بنبرة تحد قوية في ظاهرها:

- أجل عزيز الباشا رغمًا عن أنفك، أنتِ وكل من يريدون تحطيمي، ولا تتصوري أنني عاجز عن إحضارك راكعة عند قدمي، فحذارٍ أن تلعبي بالنار معي.

- أنا لاألعب بالنار، أنا ألعب بك أنت شخصيًا ياقرداتي رغمًا عن أنفي هاهاها.

سكت عزيز طويلاً ثم قال ببرود جم:

- لنقل أن إمبراطورية عزيز القرداتي قد انهارت بالفعل، فلن تكون هذه هي النهاية كما تخالين، عزيز الباشا يا كلبة يعمل حسابه جيدًا لكل شيء وتحسبًا لمجيء مثل هذا اليوم النكد.

- تقصد أن طائرتك الخاصة متأهبة للإقلاع في أية لحظة، وأن أموالك الطائلة التي نهبتها من أموال ودماء المصريين الغلابة في إنتظارك في الخارج.

- أنا لم أنهب شيئًا.

- ولكن الأوراق والمستندات الكثيرة جدًا التي في حوزتي تقول غير ذلك.

- لتقل ماتقوله، المهم في الأمر أن عزيز الباشا لن يركع أبدًا لكِ وللسفلة الذين زرعوا حقيرة ساقطة مثلك في سبيلي.

- المهم هو ما أراه أنا وليس ماتقرره أنت، وأن مصيرك أسود على أية حال سواء بقيت في مصر أو غادرتها إلى الأبد غير مأسوف عليك.

ضحك عزيز ضحكة طويلة مصطنعة وقال:

- أنتِ واهمة، فقد يكون من الصعب حقًا اصطياد ذبابة هائمة في المقطم، في الزاوية الحمراء، أو في أسوان نفسها كما تقولين، ولكن ليس من الصعب عليَّ أن أحرق كل شيء والعالم كله من أجل اصطيادها ومهما كان الثمن غاليًا، عزيز يده طائلة ألا تدرين بذلك؟.

- ولو، أنا لاأخشى هذه اليد الطويلة، ولسوف تأتيني بشرطي أنا مجرد ثور خانع.....

قاطعت رحاب نفسها بضحكة رقيعة ثم استطردت قائلة بنبرة اعتذار ساخرة لم تخل من الغمز واللمز:

- آسفة أقصد مجرد حمل وديع فما أبعدك عن الثور وقدراته الخارقة، الليلة إياها التي جمعتنا معًا في حجرة نومك الخاصة أكدت ليّ هذه الحقيقة.

- ومادامت هذه هي الحقيقة فالذي في بطنك ليس مني إذن كما تدعين.

- يضع سره في أضعف خلقه.

انفجرت رحاب في نوبة من الضحك الهستيري، وكان عزيز على وشك الانهيار الفعلي والذي قال وهو يعتدل في جلسته بغية التخلص من توتره الداخلي:

- رحاب أتصور أن هذه طريقة من المحال أن تصل بكلينا إلى النتيجة المرجوة، أنتِ فتاة فقيرة لاحول لك ولاقوة، تريدين المال والعز والجاه، وأنا عندي ماتريدين، بل أكثر مما تتصورين، ولا مانع عندي من الإعتراف بمن يكمن في بطنك ولو لم يكن من صلبي.
- «الدي إن إيه» جاهزة لإثبات كل شيء.
- لنفرض جدلاً أنه ليس ابني أو إبنتي، سوف أعترف لك على بياض بما تشائين، كما أن الخطأ يمكن إصلاحه بالزواج وفي العلن، هذا حقى ولا يمارايني فيه أحد.
- حسنًا، يبدو أن عنقك الجميلة تعرف الطريق جيدًا إلى طوق الرسن.

أحس عزيز بغصة تكوي حلقه، ولكنه تماسك قدر الإمكان وقال بنبرة هادئة:

- بل تقطع يدي قبل أن تحاول يومًا ما رفع نصل سكينك الحام عن وتر الحياة في عنقي.

- إتفقنا، ولكن يبقى أنني لن أظهر إلى النور قبل أن أنال الضمانات الكافية.

- (لنقل مليون جنيهًا أضعها باسمك ف.....)

- (بل عشرة ملايين جنيهًا.)

- لتكن مشيئتك، ويمكنك التأكد من ذلك من أي فرع من فروع البنك على مستوى الجمهورية والذي سوف أضع فيه الحساب باسمك، وهذه مجرد بداية ليس أكثر.

- هذا شيء مؤكد لا جدال فيه، ولكني أكره الحسابات الكبيرة في البنوك والتي تكون في الغالب مع إيقاف التنفيذ، أنا أحب أن آخذ أموالي عدًا ونقدًا.

- وجهًا لوجه تقصدين؟.

- بكل تأكيد.

- رائع، هذا سوف يختصر المسافة كثيرًا بيننا.

- غدًا بعد منتصف الليل تحضر بمفردك إلى جبل المقطم ومعك المبلغ، وأذكرك قلت بمفردك، وعندى

مـن سـيتابعون لـيّ الموقـف لحظـة بلحظـة، وخـط سـيرك خطـوة بخطـوة.

مسح عزيز أسفل ذقنه بيد عصبية وقال:

- والمقابل؟.

- قلنا إن هذه بداية لعقد شراكة أبدي بيننا.

سكت عزيـز طويـلاً وهـو غـارق في التفكيـر والـذي قطـع حبلـه صوت رحـاب علـى الطـرف الآخـر وهـي تقـول مسـتطردة:

- أحـب أن أطمئنـك أن ملاييـنـك العشـرة ليسـت إلا قطـرة في بحـر طموحاتـي العظيم.

- وأحـب أن تعلمـي أيضًـا أنـه يمكننـي بسـهولة أن أعـرف عنـك وعـن أخبـارك الكثيـر، وعـن أهـلك كـذلك، وأن انتقـامى لـن يكـون سـهلاً بحـال مـن الأحـوال.

- ليذهب أهلى إلى الجحيم، ولتبق رحاب في النعيم.

- أتصور أن عقد شراكتك الحقيقي مع الشيطان.

- هو كذلك بالفعل.

وفي الليلة التالية، وفي الموعد المحدد حضر عزيز بمفرده إلى جبل المقطم، كان قد وضع حقيبة النقود بجانبه في مقعد السيارة الفاخرة، كان الوقت متأخرًا والشوارع خالية من المارة، والناس نيام في فرشهم، ولم ينس عزيز أن يدس مسدسه الشخصي خفية في ثنايا سترته، كما كانت تعليماته السرية لرجاله أن يمضوا في أثره ولكن من بعيد ودون أن يشعر بهم أحد، كان يعلم أنه يخاطر بحياته ولكنه في الوقت ذاته كان يعلم أن ما أضطره إلى ذلك هو رغبته في الحفاظ على حياته نفسها، وإمبراطوريته الرهيبة التي كان رجال الإعلام والصحافة يطلقون عليها إمبراطورية لاتغيب عنها الشمس مثل المملكة المتحدة، إمبراطورية كانت تزداد مع كل طلعة شمس شهرة وثراءً ونفوذًا، لِمَ لا والأجواء مهيئة لقيام إمبراطورية عزيز الباشا وغيرها من إمبرطوريات أخريات في بلد يئن أكثر سكانه تحت وطأة الفقر والجوع والمرض العضال، ولكم وضع عزيز رقاب عباد الله البؤساء تحت قدميه حتى يعلو ويعلو ويطاول السماء ويلامس عنانها بيديه، ويسبح في ربابها الأبيض الجميل، وهاهو الليلة يقاسى مرارة الإحساس بالقهر والخضوع لقوة ما تضغط عليه كي يمضي صاغرًا في اتجاه بعينه، كثيرون كانوا بسبب عزيز الباشا وغيره من نبلاء المدينة أصحاب الدماء الزرقاء يمضون بغير إرادتهم في طريق مليء بالأشواك

والمجهول، ولم يكن الأمر هينًا على عزيز والذي اعتاد أن يكون مصممًا للأحداث، وصانعًا للاتجاهات؛ والتي ينبغي على الناس السير فيها بإرادتهم أو بغير إرادتهم، وكانت رحاب العوضي هذه المرة هي صانعة الاتجاه الوحيد والذي ينبغي على عزيز أن يمضي فيه بلا هوادة، ومن غير أن تند عنه إلتفاتة واحدة نحو أي اتجاه آخر.

كانت سيارة عزيز الفاخرة والتي يقودها بنفسه قد اقتربت من حافة جبل المقطم وتوقفت بحسب طلب رحاب، والتي أمرته من خلال جواله المحمول أن ينزل من السيارة ومعه حقيبة النقود ويتقدم مباشرة إلى الحافة التي تطل على واحدة من أقذر المناطق العشوائية في العالم، نفخ عزيز بتبرم وقال بعصبية وهو يغادر السيارة بحقيبة النقود وقد تطايرت ريح الجبل بكلماته وبأطراف سترته السوداء وربطة عنقه الأنيقة الملونة:

- رحاب وبعدًا لكِ، لا تتصوري أنني سوف أكون صبورًا معك أكثر من ذلك.

لم يأته صوت الفتاة عبر الهاتف كما كان يتوقع، وراح يتقدم بحذر بالغ من الحافة وهو يصيح في الهاتف:

- رحاب أين أنتِ، تكلمى أين أنتِ؟!.

وأخيرًا جاءه صوتها مجددًا عبر الهاتف وهي تقول:

- أنا قريبة منك جدًا، أنا أراك ولكنك لاتراني.

صمت عزيز برهة من الوقت تلفت خلالها حوالين نفسه فلم يجد أي أثر لها، ولقد كان داهية وسريع البديهة فاستدار عائدًا ووقف إلى جوار مقدمة سيارته وقال بنبرة اختبار يستشف من خلالها هل تراه رحاب حقًا كما تدعى أم أنها تخدعه:

- رحاب أنا الآن أقف عند حافة الجبل تمامًا، والهواء كما ترين يكاد يهوى بيّ من فوق الجبل، ألن تأتي لاستلام حقيبة النقود؟.

فقالت رحاب بصوت يشبه فحيح أفعى غاضبة:

- مادمت تقف عند الحافة فأنت ترى بلا ريب تلك العشش القذرة التي يسكنها قطعان من البشر والخنازير، فألا تذكرك هذه العشوائيات بشيء ما ياقرداتي؟.

- تحدثى معى بأدب أيتها الساقطة.

- دعك من قلة أدبي وحدثني أنت بأدبك المعهود عن ذكرياتك مع العشوائيات.

شرد عزيز في صفحة الذكريات الماثلة في جنانه، ثم قال بنبرة لم تخل من ارتباك خفي:

- رحاب ليس لدي وقت أكثر من ذلك أضيعه معكِ، ماذا تعنين بالضبط؟.

صمتت رحاب لفترة ثم قالت وهي تتنهد تنهيدة ثقيلة:

- هيه ماعلينا، لو دققت النظر أكثر لسوف تجدني أسفل الجبل وسط هؤلاء الرعاع البؤساء، أتطلع أولاً وأنا مطأطئة الرأس إلى حذاء لامع براق ثم إلى السماء، وإليك، وأنتظر أن تلقى إليّ بحقيبة النقود، هيا ألق بها إليَّ، هيا.

- رحاب هل جننتي، هل ألقى بملايين الجنيهات في الهواء، تعالي أنتِ وخذيها بنفسك.

ضحكت رحاب ضحكة مجلجلة وهي تقول:

- هل تتصور ياقرداتي أنك تتعامل مع بلهاء تسلمك نفسها هكذا بسهولة، ومن أجل ماذا؟، حقيبة فارغة.

سكت عزيز الباشا لفترة ليست بالقصيرة ثم قال:

- أنتِ أيضًا لاتتعاملين مع أبله يلقى بملايينه جزافًا في الهواء ومن غير أن يأخذ أي مقابل يرضيه.

كانت رحاب آنذاك جالسة إلى الأريكة في مدفن الدراسة تتحدث إلى عزيز الباشا من خلال هاتف محمول قائلة وهي تصر على أسنانها غيظًا:

- بل أنت أبله بالفعل لأنك لم تنتهز الفرصة التي منحتها لك، وأعدك أنك في الصباح وقبل أن تستيقظ من

نومك، ستكون مصر كلها قدعرفت بحكاية القانون المؤقت الذي أصدره المجلس الموقر، بضغط خفي منك ومن أتباعك المجرمين بمنع استيراد اللحوم من الخارج لمدة ستة أشهر قادمة، وذلك من أجل تمرير شحنات اللحوم الخاصة بك وبشركائك، والتي أظن أنها قد وصلت بالفعل إلى الموانئ المصرية، أي أنك بضربة واحدة سوف تربح عشرات الملايين من الجنيهات أليس هذا هو ماقلته لمندور بك التقي في مكتبك بالحزب، معذرة فمن عشقي لك ولصوتك الرخيم كنت أسجل كل كلمة كانت تخرج من فمك القذر أنت والتقى جداً.

صرخ عزيز على الطرف الآخر وهو يقول بنبرة مرتعشة:

- رحاب يجب أن أقابلك، رحاب أريد أن أتفاهم معك بأي ثمن، وأقسم لكِ أنني لن أمسسك بسوء.

- حسنًا أنت تطلب فرصة أخرى، لِمَ لا، سوف أفكر مليًا في الأمر وأرد عليك.

عاد عزيز إلى بيته غاضبًا مخنوقًا، وارتمى في مقعد مكتبه الوثير وهو يحل ربطة عنقه وقد ثقلت أنفاسه إلى حد غير عادي، وبعد فترة من الوقت أمسك بهاتفه المحمول وراح يطلب نمرة ما وهو يقول بالكاد وكمن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- مساء الخير يامعالي الباشا، معذرة لاتصالي بك في مثل هذا الوقت المتأخر، هناك فتاة ما سوف أرسل إلى مكتب سيادتك في الصباح الباكر صورتها وكل التفاصيل عنها، هذه الفتاة من فضلك أريدها حية أم ميتة ومهما كلفني ذلك من ثمن، وأنا تحت الأمر والطلب.

وفي عصر اليوم التالي جاء محمد علوان على عجلة من أمره إلى بيت أم الزين وسأل باضطراب بالغ عن ربيع الذي لم يحضر إلى الكلية منذ أيام كثيرة خلت، فقالت أم الزين بنبرة حزينة وإن كانت تبدو شامخة مثل تمثال أبي الهول:

- إن لقيته أنت قل له أمك لاتستحق منك أن تغيب عنها كل هذه الفترة الطويلة من الوقت.

ففهم محمد علوان من تلقاء نفسه أن صاحبه ربما يمر الآن بأزمة ما جعلته يهجر أصحابه وبيته وكليته، وأنه من المحال أن يترك أمه الضريرة ومن غير أن يكون هناك سببًا ما غير طبيعي هو الذي منعه عنها هكذا، ولم يهن على محمد أن ينصرف مغادرًا المكان من غير أن يعرض على الأم البائسة خدماته فاستدار عائدًا إليها وقال:

- إن غاب ربيع فكلنا خدامك وطوع أمرك، ألا تريدين مني شيئًا يا أمي.

- أريدك بخير.

انصرف محمد علوان وهو لايفكر في شيء غير السبب الذي دفعه للمجيء على عجل إلى بيت صاحبه ربيع، وكان اختفاء ربيع المريب قد زاد من اضطراب محمد علوان وحيرته، والذي انطلق بسرعة الصاروخ إلى منطقة مدافن الدراسة ليرى بنفسه ماذا سيفعل في أمر الفتاة رحاب العوضي التي تنزل ضيفة على مدفن عائلته، والتي علم أن المباحث وجهات عليا في الدولة تبحث عنها بضراوة في كل مكان، وكان هذا هو السبب الخطير الذي حضر من أجله إلى دار أم الزين لإبلاغ صاحبه ربيع بكل شيء، هذا في الوقت الذي استدارت فيه أم الزين ناحية ساحة الدار الداخلية، وتطلعت طويلاً إلى صورة ربيع إبنها ليست المعلقة على جدار البيت المتهدم، وإنما المثبتة إلى جدار قلبها الدامي الذي يدق ناطقًا باسمه حرفًا حرفًا، وقالت بنبرة لوعة وحسرة:

- سكة الحريم مرار ياولدي، تعال نمضي من هذا البلد الخانق الذي لا أعرف كيف نسير فيه، وإن سرنا فيه فلسوف تسحقنا أقدام الناس، الحياة هنا صارت مستحيلة يابني، أرمنت الحيط ليست بعيدة كثيرًا عن هنا، والوصول إليها ليس عسيرًا، عربة القطار الدرجة الثالثة تقف في

انتظارنا على رصيف المحطة، وبيتنا العتيق مازال هو الآخر يئن في انتظارنا، سوف يسعد كثيرًا بعودتنا، عودتنا سوف تثيره وتزيل الوحشة عن جدرانه العتيقة، وتخرج البوم والغربان والخفافيش التي تسكنه، تعال.

كانت أم الزين تختنق، ارتمت إلى الأرض باكية وهي تغمغم بكلمات كان لايفهمها غير ربيع نفسه، ولكن تُراه أين هو الآن؟، في الأرياف يقولون الجنية خطفته، وفي البندر يقولون سحرته عيون الغازية وسرقته من نفسه، وفي أي مكان في العالم لن يندهشوا وسيقولون أنه ذهب لأنه أراد أن يذهب، وفي القاهرة المترامية الأطراف تراهم ماذا يقولون عندما يذهب المرء بلا رجعة؟!!، لم يكن حزن أم الزين في حقيقة الأمر على نفسها، ولا على دارها التي باتت خاوية على عروشها من المال والطعام والشراب ومن كل وسائل العيش والحياة، ومما هو أيضًا أهم من كل ذلك رجلها وابنها وحبيبها وقرة عينها وحبة القلب الذي كان يكفيها المسألة وأهوال الحياة، بل كان حزنها كله لكونها ضريرة لا تدري في أي اتجاه تسير، وفي اللحظة التي ينبغي عليها أن تسير فيها بلا توقف.

(١٢)

طرق محمد علوان باب المدفن الخشبي عدة طرقات قبل أن يندفع داخلاً، كان ينظر إلى الأرض خجلاً وقد شرع يصفق علامة التنبيه لحضوره المفاجئ وهو يهتف قائلاً:

- أخت رحاب، ياأخت رحاب.

مرت فترة طويلة ولم تلب خلالها الفتاة نداءه، رفع رأسه، وراح يجيل النظر في أنحاء المكان، لم يكن هناك أي أثر لرحاب، وكذلك متعلقاتها الشخصية، فتنفس الصعداء وهو يتمتم شاكرًا ربه أنها رفعت عنه الحرج وانصرفت من تلقاء نفسها، وقد كان على وشك أن يطلب منها ذلك بنفسه للتو، كان يخشى الصدام مع الجهات التي علم أنها تفتش عنها بدأب شديد، وبخاصة أنه كان قد سبق اعتقاله من قبل بتهمة الإنتماء لأفكار جماعات دينية تكفيرية، كان محمدًا متدينًا معتدلاً بشهادة الجميع، وكان أصحابه خليطًا من النماذج الفكرية المتباينة السائدة بين شرائح المجتمع المتنوعة، بل كان مؤمنًا بأنه لا يجب أن توجد قوى موازية لقوة الدولة، ولكن قوى شرعية دافعة حزبية وهيئات إجتماعية وجمعيات أهلية ومايصلح أن يكون ترسًا فاعلاً في

دولـة المؤسسـات؛ ومعارضـة قويـة تعمـل بحجـة النقـد البنـاء لا بذريعـة النقـض الهـدام، قـوى تعـارض الفسـاد والإباحيـة والرشـوة والنفـوذ ومراكـز القـوى الشـديدة الأثـرة والطغيـان والتـي لاتـرى غيـر ذاتهـا، كان يؤمـن بالنظـام الأبـوي للدولـة القويـة المطيعـة لأوامـر الله ونواهيـه، والتـي تتبنـى ثقافـة ورؤى وأحـلام الشـعب وتطلعاتـه، وتجهـد نفسـها بـكل مـا لديهـا مـن أدوات وتجـارب وابتـكارات مـن أجـل رفاهيـة الشـعب كلـه وليـس مـن أجـل رفاهيـة أشـخاص بعينهم، دولة شـعارها الأكفاء يتقدمون، الأسـوياء يثبتون، المتخلفـون المتكاسـلون المنحرفـون المتطرفـون الإنتهازيـون المجرمـون الحاقـدون الفاسـدون يتراجعـون، يمتنعـون، وأن المواطنـين كلهـم سواسـية أمـام القانـون، لهـم حقوقهـم الكاملـة في الحيـاة، والترقـي في الدولـة، وكسـب معايشـهم مـن طـرق شـريفة،، والقـرآن نـزل بآيـات تبـرئ سـاحة يهـودي وتديـن مسـلمًا أخطـأ، وأن عمـرًا بـن الخطـاب ضـرب وأدان ابـن الأكرمـين وأبيـه عمـرو بـن العـاص مـن أجـل قبطـي مصـري، ولكـم كانـت حجتـه قويـة أمـام هيئـة التحقيـق والتـي وجهـت لـه تهمـة تبنـي أفـكار تكفيريـة فقـال بثبـات جـم:

- سـيادة المحقـق محـال أن أتبنـي فكـرًا تكفيريًـا، والأصـل في رسـالات السـماء كافـة وبخاصـة رسـالة النبـي محمـد الرحمـة للعالمـين، وحريـة الإعتقـاد فـلا إكـراه في الديـن بعـد أن تبـين الحـق

كله كنور الصباح الأبلج، والتسليم هو السمة التي يبغاها الخالق وحده تعالى من مخلوقاته أجمعين لكونه أراد أن يعبد خير عبادة، ولكن التسليم الإختياري لا الإجباري وهذا هو أس الابتلاء وامتحان العباد على هذه الأرض، والذي ننال من خلال نجاحنا أو فشلنا فيه الجزاء الأوفى في الآخرة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وأنا على يقين من أن الفكر الذي يعدم مجتمعًا بحاله يجب أن يعدم فورًا، ويُربَّي أنصاره على الفكر الصحيح القويم، على ثلاث مراحل متدرجة تقييم فتقويم أو فمقاومة، أما إذا كانت تهمتي هي التدين في حد ذاته فلتنصبوا ليَّ أعواد المشانق كما تشاؤون.

ويومها ربت المحقق على كتفه وأمر بإخلاء سبيله لعدم ثبوت انتمائه لجماعات ذات أفكار متطرفة، وعندما عاد إلى البيت اختلى به والده في حجرة الصالون، وأوصد عليهما الباب بإحكام، وقال له بنبرة حانية مشوبة في طويتها بقرار

حاسم لا رجعة فيه:

- أنا لا أمانع في نشاطك الجامعي وعملك الدعوي والسياسي المسئول، ولكن حذار من أن يجرفك حماسك يومًا ما إلى ماهو أبعد من ذلك، وإلا سوف أضطر لحبسك في البيت بنفسي، لأنني لاأحتمل أبدًا أن تتغيب عنه ثانية.

كان صوت الأب واهنًا وقد أصابه ماأصابه من أمراض في الفترة التي أُعتقل فيها ابنه، فابتسم محمد وقال وهو يرفع هاتفه المحمول الذي كان يرن لحظتها رنينًا متصلاً:

- هيثم القللي على الهاتف هلا أذنت ليّ بالرد عليه.

فقال الأب وهو يسعل بشدة:

- ثمرة واحدة فاسدة يمكنها أن تتلف قفصًا بحاله، هو أيضًا متطرف ولكن على النقيض من غيره، وبقاؤه في ثلتكم قد يفسدها.

فضحك محمد، وقال وهو يمسح برفق على ساعد والده المرتعش وقبل أن يرد على صديقه اللدود هيثم:

- هو طيب القلب والله ياحاج، ادع الله أن يهديه ويهديني.

كانت هذه هي الأفكار التي طرأت بسرعة البرق الخاطف على ذاكرة محمد علوان، والذي استدار ناحية لحود أهله وأقربائه، ثم راح يتلو الفاتحة ترحمًا على أرواحهم الطاهرة أجمعين، ولكنه شرد فجأة في صفحة الأفق البعيدة والتي كانت تكسوها لحظتها حمرة الشفق المترجرج، وكان السؤال الذي لاح أمام ناظريه آنذاك تُرى أي لغز وأي سر وراء زميلته رحاب العوضي وصديقه ربيع واللذين اختفيا فجأة هكذا، ولا

أثر لهما على الإطلاق يدل على مسيرهما في أي اتجاه يمكن تقصيه؟، وربما للمرة الألف راح يطلب ربيع عليّ رقم هاتفه المحمول ولكن دون جدوى فلقد كان الهاتف مغلقًا باستمرار، ثم اتجه شاردًا ناحية الأريكة الخشبية بغية الجلوس وهو يفكر في مصير صاحبه الذي يكتنفه المجهول تمامًا.

كان ربيع نفسه لا يدري أين هو، فعندما أفاق من سباته، غيبوبته، موتته، وجد مالم يخطر له على بال أبدًا، كان المكان مظلمًا من حوله، ولكن وشت به ذبذبات صوت الريح المزمجرة في الخارج ممزوجة بصوت مياه البحر وهي تصطدم بشدة في صخور الشاطئ، فهب مسرعًا في اتجاه شبح نافذة كانت تتسلل من خلالها أطراف خيوط ضوء وئيد تأتي من الخارج، لم يصدق عيناه، وتفجر شلالاً من الأسئلة المدمدمة في أعماقه وهو يجيل النظر في الصورة الباهتة المرتسمة أمام ناظريه، البحر المعتم الهادر، السماء الضاربة إلى الحمرة القانية، الشاليهات التي تراصت من بعيد، والتي كانت تبدو على ضوء الفنار كأشباح هلامية متراقصة، أمسك ربيع برأسه وقد أصابه الدوار الحاد، وهو يتطلع إلى تلك الصورة العبثية وقد أصبح بلا دراية منه أحد عناصرها الأساسية، الواقع يكون مستفزًا جدًا عندما يعجز عن تبرير وجوده الفجائي، ويكون أكثر استفزازًا عندما

يقدم لنا مبررات واهية لايقبلها العقل، وأسئلة فجة، الحياة حلم؟، الواقع وهم؟، نحن حقيقة أم خيال؟، وإذا كنا حقيقة فلماذا يقترن بنا العالم الخيالي، ويجعلنا نتحرك بأدواته لا أدواتنا نحن الواقعية، عالم يدهس بلا رحمة آدميتنا المتعثرة مع سبق الإصرار، يرعبنا بمجافاته المترصدة للصور المنطقية التي كنا نعرفها، نحيا ونتحرك فيها وكأننا أوتار في نسيجها الطبيعي، وهاهو ذا يزرعنا في غفلة منا في قلب عالم عجيب غريب لامعنى له، ولاوضوح لحقيقته، وإلا ما الذي أتى بيّ إلى هذا المكان الموحش، وأين كنت من نفسي حين استدعيت رغمًا عني ليس إلى الحياة ولكن إلى هنا؟!!، كانت هذه هي خطرات النفس وأسئلتها الفجعة التي انسابت بتلقائية اللحظة الغامضة من سويداء أعماق ربيع، والذي أخذ يستكشف المكان من حوله، وقد أحس وكأن شيئًا ما غريبًا يسري في دمائه كدمائه، وأنه بمنأى عن كل شيء في عالمه القديم، الحاضر، اللاحق، ولكنه كان يجهد ذاكرته خلال ذلك كي تلقى له بخيوط الأمل المضيئة والتي ترشده إلى حقيقته التي كانها، وحقيقة اللحظة الراهنة التي يكونها، بل ماذا يمكن أن يكون، وماكنه هذه الصورة المريبة التي تحدق به من كل ناحية وكأنها جسد جنى بغيض تلبس جسده، وسطت على عقله وغيبت وعيه تمامًا، كانت أم الزين هي الشيء الوحيد الذي أحب أن يتذكره في هذا الخضم اللاه من الغموض، لم يتذكرها بعقله ولكن قلبه فعل ذلك.

بعد فترة شعر بغصة شديدة وهو يرتمي جالسًا في أحد المقاعد وبعد أن عجز عن فك طلاسم المكان من حوله، وكانت كل قطاعات عقله المتمردة ماتزال مشلولة وغير قادرة على تفسير الشفرات المرسلة من وراء أسوار العالم الخارجي، وتصور ربيع لوهلة أنه لو وقف أمام المرآة لجهل هوية الشخص الواقف أمامه، والشيء الوحيد الذي ذكره أنه لم يزل بعد إنسانًا من لحم ودم انتابته مغصة الجوع التي اعتصرت أمعائه بشدة، وأحس وهو يمضي متحسسًا الطريق المظلم إلى مطبخ الشاليه كأنه جنين خرج للتو من رحم أمه، تطمره دماء المخاض اللزجة، وطوفان من الأسئلة الهائجة التي تندفع كطلقة المدفع الهاون مع لحظة إدراك المرء لحقيقة وجوده، وحقيقة كونه عريانًا جائعًا ظمآنًا، يحتاج إلى المأوى الحب الحنان، وأنه مخلوق طبيعي ويجب أن يعامل كمخلوق طبيعي، بل يقتله ذلك الإحساس التعس الذي ترصده العينان حين تريان كل مظاهر الرفاهية عند البعض ثم تنعطف وتنكسر على البعض الآخر المحروم من كل شيء، فتثور بصاحبها المحروم وتضطرب، فإن أول مايثور في الإنسان عينه، ثورة قد تغير التاريخ نفسه !!.

ولحظتذاك والخواطر تنهش الفتى نهشًا مزلزلاً فوجئ بأن مطبخ الشاليه عامرًا بالأطعمة والأشربة، كان ضوء الخارج ينير

لـه بالـكاد المكان، ولكن جوع بطنـه الشـديد كان قـد أنسـاه الظـلام، لِمَ لا وفاقدو البصـر أنفسـهم يمكنهـم الحيـاة من غيـر النور ولكنهم يموتـون إذا لـم يأكلـوا ويشـربوا، فمـا بـال هـؤلاء الأحيـاء الذيـن يتحركـون في ربـوع البـلاد وبطونهـم خاويـة علـى عروشـها، إنهـم يشـبهون الأشـباح حقًـا ولكـن آدميتهـم سـاطعة كشـمس العصـارى، فمنـذا الـذي يحـس بهـم ويمدهـم مـع معجـزة الوجـود بمعجـزة البقـاء؟!، لا الحيـاة يملكهـا الأقويـاء فقـط، إنهـم يشـيدون لأنفسـهم مدنهـم الأسـطورية، ويشـيدون لغيرهـم مـدن الفنـاء ذات الطرقـات الممتـدة إلـى مـالا نهايـة لتسـتوعب مواكـب الكثـرة الكاثـرة الماضيـة خلالهـا، والتـي لا أمـل لهـا في التراجـع أو التوقـف عن السـير معذرة فالاتجـاه إجبـارى، هكـذا كان يقـول لسـان حـال الواقـع الـذي نسـيه أو أراد أن يتناسـاه الفتـى ، فلمـاذا يسـخر مـن أولئـك المكرهـين السـائرين في دروب اللارجعـة، والحلـم بحيـاة هانئـة يسـحب كبسـاط حريـري مـن تحـت أرجلهـم، وتتلاشـى معالمـه أمـام أعينهـم الثائـرة وكأنـه سـحابة دخـان منبعثـة مـن سـيجارة ملفوفـة بمخـدر يجعـل حقوقهـم الأساسـية في الحيـاة خيـالاً في خيـال، ولوثـة مـن ألـواث العقـل، ولمـاذا يصـر علـى السـخرية مـن المسـيرين غيـره وهـو نفسـه يمضـى في اتجـاه إجبـارى، كان ربيـع يعلـم في قـرارة نفسـه أن الإنسـان يولـد حـرًا مخيـرًا في تحديـد الاتجـاه الـذي يرتأيـه لنفسـه، ولكنـه يفلسـف حقيقـة وجـوده وأنـه جـاء وذهـب بغيـر مشـيئته، وأنـه

إنما كان يمضي في طريق الحياة الثقيل الوطأة مجبرًا، وهو في حقيقة الأمر من أساء الاختيار، ولا أحد سواه، فاستدار ربيع عليّ عقبيه صارخًا بنبرة معترضة:

- ربما أكون حقًا قد أتيت إلى الحياة مجبرًا، وسأمضي منها كذلك، ولكن من المؤكد أنني قد أتيت إلى هنا بمحض إرادتي الحرة.

- أجل، لقد ثملت كثيرًا على غير عادتك، ورافقتني إلى هنا مثل الخاتم في الإصبع.

التفت ربيع إلى مصدر الصوت، ولكن الضوء الذي غمر المكان فجأة مع الصوت الشيطاني أحدثا في نفسه صدمة ارتداد الذاكرة، وفقدان لحظي للرؤية الرائقة، كانت تبدو أمامه مثل صورة مشوشة، راح يدنو منها وهو ينظر إليها وإلى المكان من حوله بدهشة بالغة وقال:

- رحاب؟!!.

- أنت أجبرتني على أن أفعل ذلك.

كان ربيع لا يصدق نفسه، وأنه قد تم اختطافه بغير وعي، وأن من اختطفته في عالم الواقع هي ذات الفتاة التي اختطفته من نفسه في عالم الأحلام الوردي، فيما استطردت رحاب قائلة بثقة متناهية وهو يبدو كالتائه في واد آخر:

- ربيع أنت تفكر كثيرًا بعقلك، عقلك لم يعد عقبة كئود في سبيلي فقط بل في سبيلك أنت أيضًا، وكان قراري أن يذهب عقلك إلى الجحيم ولنبق معًا إلى الأبد.

نظر إليها ربيع نظرة مستفهمة وهو يصغى باهتمام لكل كلمة تقولها بصوتها الذي كانت تتلاعب بمخارج ألفاظه بصورة مؤثرة للغاية:

- أنت عِنَديٌّ جدًا، كدت تضيع علينا فرصة ذهبية من أجل الحصول على كل شيء، المال السعادة الحب، في مدفن عائلة علوان، عارضتني بشدة ولكنك تناولت بهدوء من يدي الزجاجة المترعة بالخمر المعتق اللذيذ، وشربت لأول مرة في حياتك حتى الثمالة، لالشيء إلا لتنسَ أنك تقاوم، وأنك تريد أن نكون معًا.

- ولماذا جئتى بيّ إلى هنا.

ضحكت رحاب ضحكة طويلة مبتذلة وقالت:

- الخمر لعبت برأسك، كلمت من هاتفك المحمول صاحبك هيثم القللي، طلبت منه أن يعطيك مفتاح الشاليه الخاص به من أجل.....

وأكملت حديثها في أذنه، فغر ربيع فاهه عن آخره وقال كالمصعوق:

- أأنا فعلت ذلك؟!!.

- وقابلته وأخذت المفتاح منه وأتيت بيّ إلى هنا، وجعلتني أمضي معك أجمل أيام العمر.

- كذب هراء، كيف آتى بك إلى مكان لاأعرفه من الأصل، ثم أن هيثم القللي ليس ميسور الحال إلى الدرجة التي تجعله هو أو أهله يملكون مثل هذا المكان الراق.

- سل نفسك.

- لسوف أتأكد بنفسي، أين هاتفي المحمول أين؟.

- لست أدري.

شرع ربيع يقلب المكان رأسًا على عقب، لم يكن هناك أي أثر لهاتفة أو لمجرد طرف خيط يرشده إلى حقيقة ماتقوله الفتاة، فالتفت إليها وقد خارت قواه تمامًا، وحدجها بنظرة نارية قبل أن يمضي خارجًا من الشاليه، كان الجو شديد البرودة في الخارج، راح يسعل بشدة، ويكتف نفسه بيديه، وينكمش داخل إطار أضيق بكثير من ذاك الذي يسع حجمه الحقيقي، أراد أن يستدير ناحية الداخل ولكنه كان يريد أن يغادر المكان بأسره وبأي ثمن، ولكن إلى أين سيمضي إذا كان يجهل كنه المكان الذي يحوي جسده ويظله بسماء لايعرفها، ويحمله على أرض

لا يدري أقريبة هي من أرض عالمه أم بعيدة، كان يرنو بعيدًا وكلماتها داوية في أذنيه، من نبرة صوتها وملامحها وقدرتها الفائقة على التأثير كاد يصدقها ويكذب نفسه، وأنه ربما سكر حتى الثمالة، وغاب عن وعيه، فكان الذي صار واقعًا مجسدًا أمام عينيه الذابلتين، وفجأة تراءت له صورة أمه، فهز رأسه أن مستحيل أن ينساها وإن نسى نفسه والعالم بأسره، كانت رحاب تراقبه عن كثب وهي مسندة بجسدها إلى حلق الباب الخشبى، وكان هو يوليها ظهره، وبعد فترة استدار ناحيتها وفي عينيه نظرة متسائلة:

- أمى؟.

- أنا أمك وأختك وحبيبتك وكل شيء.

- أم الزين، أم الزين.

وبسرعة استدار ربيع ناحيتها كالمجنون وهو يرجوها أن تصارحه بالحقيقة ولاشيء غيرها، فقالت له وهي تهز كتفيها علامة النفي:

- أنا لا أعرفها حتى أعرف عنها أي شيء، صدقنى.

شرد ربيع طويلاً وهو يتساءل في نفسه كم من الوقت غاب عنها، وكيف هو حالها الآن، وماذا صنعت في غيبته وهو من

كان يأتي لها بطعامها وشرابها ودوائها وكسوتها، كان ربيع أكثر الناس معرفة بأمه العفيفة النفس وأنها تفضل الموت جوعًا ولا تمد يدها حتى لأقرب الناس إليها، ولوكان هؤلاء الناس هم شقيقه سليط وشقيقته سمر أنفسهما، لقد كان ربيع بالنسبة لها الماء الذي تشربه، والهواء الذي تتنفسه، والضياء الذي ينيرلها ظلام عينيها، وكانت أم الزين بالنسبة له هي الحياة ذاتها، وهاهي ذي حياته تفارقه أمام عينيه وهو عاجز عن فعل أي شيء، تلفت حواليه، كان البحر أمامه ممددًا كحيوان خرافي وأمواجه تضرب بقسوة في صخور الشط، تتناثر أمواهه، يتطاير الرذاذ كسيل من الأمطار المغرقة، كما كان المكان موحشًا وخاليًا تمامًا من وجود أي كائن حي، ولم يكن ثمة أثر للطريق الأسفلتي السريع على مرمى البصر ومن كل زوايا الرؤية الطبيعية، جن ربيع وأحس أنه يرى بعينيه المنفرجتين كابوسًا بشعًا، وكانت رحاب ماتزال تقف خلفه بباب الشاليه مبتسمة بثقة وقد عقدت ذراعيها عند صدرها الكاعب، وقالت أخيرًا:

- الجو بارد، ألا ترغب في حضن دافئ.

- لا أرغب في شيء مطلقًا، رحاب بالله عليكِ أخبريني أين أنا.

- في مكان ما، على شاطئ ما، مع فتاة ما.

قالتها وهي تدنو منه وتشده برفق نحو الداخل، تملص ربيع من يدها وقال بحدة:

- لاتتصوري أنني رجل ضعيف، أو أن حبي لكِ سوف يجعلني كذلك، أنتِ دنيئة وتلعبين لعبة قذرة، وصدقت أمي يوم حذرتني من شيطانة ما، وهي التي لا تعرفك بالمرة.

- قلب الأم أليس هذا ماتريد أن تقوله يابن أمك.

- رحاب ماذا تريدين مني بالضبط؟.

قالها ربيع وهو ينظر إليها كالمسحور المسلوب الإرادة، كان يترجرج بين نقيضين، القوة والضعف، الحب والكراهية، الرغبة في البقاء والانصراف في آن واحد، وفجأة عبس وجه رحاب وعرته تقطيبة شديدة وقالت:

- لقد راهنت عليك منذ البداية، كشفت لكَ أوراقي، وخططي كلها، وعرفت من أنا، ومع من تحالفت وضد من.

- تحالفك كان مع الشيطان وضد عزيز الباشا أليس كذلك؟.

- عزيز القرداتي هو الشيطان بعينه، تحالفي كان مع الشيطان حقًا ولكن ضد الفقر والجوع والمرض والنظرة الدونية التي نسحق بها نحن الفقراء ليل نهار.

- لاتتحدثي باسم الفقراء، الفقراء الشرفاء لا يبيعون أنفسهم مثلك للشيطان أبدًا.

زفرت رحاب بغيظ وقالت له وهي تسحقه بنظرة ساخطة:

- يبدو أنني أخطأت في اختياري لشخص عنيد بليد غير طموح مثلك، ولكنني مضطرة لمواصلة المشوار على أية حال.

رق قلب ربيع لها رغمًا عنه وقال لها بصوت هادئ:

- حبيبتي لستِ مضطرة لأي شيء على الإطلاق، وإن كنت لا أبرِّئك من الخطية إلا إنني لايمكنني أن أدين بها مخلوق آخر غيرك ليس له أي ذنب في مجيئه.

قال عبارته الأخيرة وهو يمسح براحة يده برفق على بطنها وأردف قائلاً:

- تعالي نبحث معًا عن حقه في الحياة، نجبر والده الحقيقي على الإعتراف به، وتأمين مستقبله، ولنذهب بعد ذلك معًا إلى عالم البراءة اللبني مرة أخرى.

سكتت رحاب لفترة ثم قالت بصوت تغيرت نبرته إلى الخفوت الناعم:

- وهل ستغفر ليّ؟.

- سأحاول.

- هه إن وافقتك وتركت حليفي فلن يتركني هو أبدًا.

- أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم.

فقالت وهي ترشف رشفة عميقة من كأس الشرود:

- هذه هي الحقيقة عقدي مع الشيطان أبدى، لأنه ليس لدي الاستعداد للعيش تحت سقف الفقر لأي سبب من الأسباب، ولن أجعل سيل المطر والحشرات القذرة تسقط من فرجات السقف المتهالك في حلقي وأنا نائمة مرة أخرى، أجل نائمة فوق بالوعة الصرف الصحي العفنة بين الديدان والحشرات والعقارب، وذئاب حيوانية بشرية تنهش في لحم الأنوثة في الخرائب المظلمة وسط جبال من القمامة الكريهة، وأب لاهم له إلا إتيان أهله في أي وقت، وبعد أن يلعب منقوع البراطيش برأسه، الخمرة الفاسدة التي تمتصها إسفنجة البارمنجي من سقط كئوس خمر الزبائن على أسطح الموائد التي يجلسون إليها، وراقصة رخيصة عارية تلف وتدور بينهم، بأعين رءوسهم، بشهواتهم الذكورية المريضة، تسقيهم خدر اللذة، وعندما

يعود إلى بيته أقصد عشة الخنازير يريد أمي أن تكون راقصة، أن تسقيه المتعة، أن تباريه في الفراش كأي غانية ساقطة مبتذلة، كان يخرجنا في جوف الليل عندما تذكره بأنه لايصح أن يرى الأطفال معركة اللذة الرهيبة، وأنهم لا يصح أن يسمعوا صلصلة سيوف المتعة، واصطكاك أسنانيهما ببعضها البعض.

قالت رحاب ما قالته ثم استرسلت في حديثها كالشاردة:

- هيه، وبالكاد كنا نرى بعضنا البعض في ضوء الليالي القمرية، كنت أسمع صوت والدي يأتي من داخل العشة ممزوجًا بأصوات الذئاب التي تعوى في الخرائب، والريح التي تحمل إلى أنوفنا رائحة مستنقع القارات التي تعشش في داخلنا، كانت غاية أمانينا ونحن نرفع أكف الضراعة إلى السماء أن تأتى سيارة فارهة من تلك السيارات التي كان يشاع أنها تأتي من آونة لأخرى، وينزل منها أثرياء يوزعون المال والطعام والحلوى على الصغار، كان مجيء أمثال هؤلاء حلمًا مستحيلاً.

صمتت طويلاً وقد شخصت بنظراتها إلى لاشيء في العالم المنظور، كانت تبدو كمن يتفحص في وجه عالم خفي غامض مريب، وقالت بصوت خفيض مالبث أن ارتفع شيئًا فشيئًا حتى صار صراخًا فجًا رهيبًا:

ولكن جاء فجأة من أخذ طفلة صغيرة مبهورة بلمعة حذائه العجيبة الذي لم تقو مياه المجاري والقمامة المتناثرة في الطرقات المعفرة بالتراب والطين والهباب والزفت والقطران على أن تطفئ لمعته الضاوية، الطفلة كانت تنظر لأسفل، وهو أيضًا كان ينظر لأسفل، ليس خجلاً وإنما ليرى ويعبث ويتلذذ بما يخجل منه الناس ويخفونه في حجورهم، المبهورة ركبت معه السيارة، لم تكن عذراء كما تصور، كان يأتيها من وقت لآخر وبذات الحجة إيِّاها، زيارة خيرية من أكابر البلد للعشوائيات، كانت البائسة تأخذ منه قسمتها ونصيبها، تعلمت كبرت أصبحت جامعية جميلة فاتنة لعوب بكل ماتحمله الكلمة من معنى، تعرف جيدًا كيف تتسلل كالقطة قبل أن تهجم كنمرة متوحشة، خرجت من القاع ومستحيل أن تعود مرة أخرى إليه.

رحاب أنت فتاة ريفية قروية، القرى أماكن طاهرة كالمساجد، ومحال أن توجد فيها مثل هذه الأجواء الشيطانية الموبوءة التي تتحدثين عنها.

لقد كذبت بشأن مجيئي من قرية، ولكن هذا لا ينفي أصلي الريفي الطيب البسيط.

فماذ حدث إذن؟!.

صمتت رحاب طويلاً ثم قالت وصدرها يعلو وينخفض بتنهيدة أسى عميقة:

- هيه، بعض القرويين تراودهم أحلام المدينة، الثراء والرفاهية والراحة والتخلص من فقر الريف المدقع، كثيرون من هؤلاء المغرر بهم يسقطون في فخ العشوائيات، وما أدراك ما العشوائيات، يفقدون أماكنهم في بلادهم الأصلية، تلفظهم المدينة، لا يجدون مأوى لهم، تلعنهم الحياة، يستسلمون للأمر الواقع ولدهسات نعال المجتمع، ينامون في عراء الوجود بعد يوم موت آدميتهم الطويل وفي أعينهم كلهم حلم واحد لاأكثر، الخلاص، ولكن أنا حلمت على طريقتي الخاصة.

أحس ربيع برعدة تسري في أوصاله، أمسكها من كتفيها بعنف أقرب إلى الضعف منه إلى القوة وهو يقول صارخًا:

- كم أنت لعين أيها الفقر المجرم لتقدم لنا أمثال هذه النفوس المشوهة البغيضة، تقبلي قدرك الله خلق الأغنياء وخلق الفقراء.....

فقاطعته بحدة قائلة:

وأنا لن أنتظر إحسان الأغنياء.

كلنا لاننتظر إحسانًا من أحد، ننتظر فقط حقنا الطبيعي في الحياة، المأكل، المشرب، المسكن، العمل، الأمان، الهواء النظيف، والمجتمع ينتظر أيضًا منا الكثير.

هه إنك قد أسمعت حيًا، ولكن لاحياة لمن تنادي.

المهم على أية حال ألا يخسر الإنسان نفسه، فأذل الفقراء قد يخرج من الحياة فائزًا.

قال ربيع ماقاله وقد أحس بأن قواه تخذله، وأنفاسه تضيق، ولونه يتغير، واستدار ناحية الباب بغية الانصراف إلى الأبد، ولكنه فجأة صرخ صرخة عالية وهو يرتجف، واستدار ناحية رحاب وهو ينظر نظرة مبهمة مستفهمة عن حقيقة ماأصابه، غير أنها بالأولى كانت نظرة مستجيرة، لاحت على شفتي رحاب ابتسامة خبيثة، واتجهت ناحية درج البوفيه وأخرجت منه شيئًا ما، راحت تدس سنه الحاد بعد قليل في عرق ذراع ربيع النافر المتشنج، كانت عيناه آنذاك مفتوحتان عن آخرهما، وفاه مفغورًا، وطاقتا أنفه كانتا تتسعان وتضيقان بسرعة و يسيل منهما المخاط بغزارة، وعندما ساح الخدر الغريب في عروقه واختلط بدمائه توقفت رعشات جسده، وهدأت دقات قلبه، ونظر نظرات دهشة متقلبة بين خياله وبين ذراعه الممدودة والفتاة رحاب، نظرة كانت تحوي الكثير من الأسئلة، وإيماءة

إيجـاب واحـدة نـدت عـن الفتـاة كانـت تحـوي أيضًـا كل الأجوبـة التـي لـم يتوقعهـا الفتـى يومًـا مـا في حياتـه، وكان قـراره النهائـي الـلاإرادي هـو أن يسـلم عنقـه لطـوق الرسـن الـذي كانـت تلـوح بـه رحـاب مـع الحقنـة والمخـدر والجسـد الشـيطاني اللعـوب.

(١٣)

كانت رحاب داخل عباءتها القاتمة تقود السيارة بسرعة جنونية والتي لايدري من أين أتت بها، وعندما وصلت فجرًا إلى أطراف القاهرة الصحراوية نزعت عن عينيه العصابة السوداء التي كانت تضعها على وجهه حتى لا يعرف عنها أي شيء، ومن أين عادت به، وفي أي اتجاه سارت، وقالت له قبل أن ينزل من السيارة مباشرة بنبرة إمرأة محترفة لاتعرف الهزل:

- نفذ ماقلته لك حرفيًا، كن حذرًا، لاتبحث عني، وأنا سوف أصل إليك بطريقتي وفي الوقت المناسب.

كان هذا هو آخر ماقالته رحاب لربيع الذي كان يسير في الشوارع التي كانت تزداد ازدحامًا وصخبًا آنًا بعد آن، الإتجاهات كلها تتقاطع، الناس يتصادمون في الطرقات، يتخبطون يتنازعون، يروون عجبًا فوق العجب نفسه، ربيع كان يبدو كالتائه، ولكنه كان يعرف وجهته جيدًا، ومضى ورأسه مخدرة لابالحقنة التي نكتتها رحاب في عرقه الأزرق النافر قبل عدة ساعات مضت، والتي سيحتاج إلى مثلها مرة ومرات كلما توالت الساعات تلو الساعات، وإنما بالصدمة في حقيقة ماآل إليه حاله.

تعثرت قدمه وهو يمدها للأمام كي يرتقى الرصيف الأسمنتي المكسو بالرخام الأسود الناعم أمام البناية الشاهقة الفاخرة، تقدم ناحية البوابة الزجاجية الغامقة العملاقة التي كان رجال الأمن يظهرون من ورائها كالأشباح، رفع رأسه لأعلى، كانت الشمس فوق رأسه مباشرة ترسم حزًا ذهبيًا على أطراف البناية العملاقة، آلمته عيناه فأغمضهما، وكانت ساقاه ترتعشان، وبالكاد استطاعت يده دفع بوابة الدخول، ولم تكن إجراءات دخوله معقدة كما توقع، وفور تقديمه نفسه باسم «مرسال» ومن غير أن يسأله أحد عن بيانات هويته الشخصية إصطحبه رجل الأمن إلى المصعد، وظل يلازمه حتى الطابق التاسع، ثم تقدم ربيع عبر الدهليز الطويل في رفقة رجلي أمن آخرين عملاقين، كانت حالة الشلل الفكري التي أصابت ربيع قد جعلته يتجاهل تفاصيل المكان، ومَنْ قابل، وكم من الوقت انتظر في مكتب السكرتارية الغاص بالحسناوات ات التنورات القصيرة، والروائح العطرية النفاذة، والمساحيق الصارخة، والشعور المصبوغة، وعدسات الأعين اللاصقة الملونة بأغرب الألوان البراقة، أشارت له إحداهن أن يتبعها، مضيا معًا إلى مكتب فاخر للغاية، ثم تركته واقفًا في منتصف الحجرة الأشبه بالقاعة الكبيرة جدًا وانصرفت، ظل ربيع متصلبًا في مكانه وهو ينظر في اتجاه المكتب الخشبي الفخيم المطعم بالأصداف

والأحجار الكريمة، لم يكن جالسًا إليه أحد، وانتبه فجأة إلى وقع خطوات أقدام تأتي من ناحية دورة المياه الملحقة بالحجرة، كان ربيع يعرف هذا الرجل القادم جيدًا من خلال صوره وأخباره التي تملأ الصحف والمجلات والفضائيات، وعرفه أكثر من رحاب العوضي والتي كانت كلماتها ترن في أذنيه كالطبل، كن متجهمًا، حادًا، وقحًا، وفي الواقع لم يقو ربيع على نظرة الإزدراء التي طالبته بها رحاب أن يؤديها كممثل بارع وهو يسلم رسالتها المكتوبة بخط الكمبيوتر، وغلبته طبيعته الطيبة وهو يخرج من جيب سرواله ورقة مطوية وقد جعل يقدمها لعزيز الباشا وقد إرتخى جفناه الثقيلان على عينيه رغمًا عنه، بل كانت قناعاته الداخلية تأبى على ذهنه المغيب ألا يكون مجرد دمية تحركها يد لعوب ساقطة من على بعد عشرات وربما مئات الكيلو مترات، أخذ عزيز الورقة واتجه إلى مكتبه جالسًا، وشرع قليلاً يتفرس في وجه الفتى النحيل العملاق المطرق خجلاً كفتاة بكر، ثم راح يقرأ رسالة رحاب العوضي وهو يصر على أسنانه بغيظ شديد، كانت رحاب قد كلمته كعادتها من نمرة مجهولة، وأخبرته أنها سوف تجعل شخصًا ما يقوم بدور المرسال بينهما حتى تحصل من خلاله على شيء مادي يطمئنها إلى صدق نوايا عزيز معها، وأنه سوف يقبل عن طيب خاطر بوضع طوق الرسن في عنقه، وكانت رحاب في مقابل ذلك سوف توقف محاولاتها المحمومة

الدءوبة لتحطيمه بكل السبل، وكانت رسالتها له تحوى تذكيراً بما تحت يديها من معلومات وأسرار خطيرة عنه وعن غيره من أكابر هذا البلد الموجوع، وعند السطرين الأخيرين من الرسالة توقف عزيز طويلاً أمامهما وهو ينظر من تحت لتحت لربيع وصوت رحاب يدوي في أذنيه كالرعد وهي تقول :

- أحذرك من أية محاولة لترويع أو مساومة مرسالي وإغرائه بالمال والمنصب والجاه العريض، ولكوني أعرف جيداً ألاعيبك القذرة يا عزيز الكلب فقد اتخذت كل الاحتياطات التي تجعلني في مأمن تام منك، بل من هذا الشبح الدميم الواقف أمامك الآن.

- معك سيارة؟.

- لا.

- سوف أجعل رجالي يصطحبونك إلى المكان الذي تحدده بنفسك.

- لا، هات الحقيبة وأنا أعرف ماذا سأفعل بعد ذلك.

- كما تحب.

قالها عزيز وهو يمد يده إلى أسفل المكتب، ثم أخرج حقيبة جلدية متوسطة الحجم ووضعها على سطحه، فتقدم ربيع من المكتب، ومن غير دعوة قال وهو يفتح الحقيبة:

- مليون دولار؟.

- بالتمام والكمال.

وبحركة محترفة مفتعلة راح ربيع يفرك بعض الأوراق الخضراء بأصابع يديه ليتأكد من كون الدولارات صحيحة وغير مزورة، فانفجر عزيز في الضحك وقد هب مندفعًا من وراء مكتبه قائلاً وهو يحكم شد وثاق ربطة عنقه الأنيقة:

- قل لمن أرسلتك هذه النقود ليست شيئًا يذكر بالنسبة لـيّ حتى ألجأ للخداع.

- تقول هذا لأنك تعرف جيدًا من أين ستستعيدها، من دماء هذا الشعب المسكين.

فتح عزيز ذراعيه عن آخرهما وهو يقول بنبرة مصطنعة:

- مرحي مرحي، أأنا أمام اللص الشريف روبن هود، يسرق من الأغنياء من أجل الفقراء.

وعندما هم ربيع بالرد عليه سمعها وهي تقول له في حنايا ذاكرته بصوت صاخب حازم:

- لا تُجرِ معه حوارًا من أي نوع، إنه ثعلب مراوغ خطير.

فماتت الكلمات على شفتيه قبل أن تولد، أحكم إغلاق الحقيبة ثم استدار خارجًا من الحجرة مسرعًا، وعندما كانت المسافة بينه وبين البناية العملاقة خلفه بعدة أمتار سمعها مجددًا تقول له في أعماقه:

- إمض مسافة ولاتنظر وراءك، رجاله سوف يكونون في أثرك من غير أن تشعر بهم، هرول لمسافة أخرى، توقف فجأة وتلفت حواليك، وعندما يقابلك أقرب أتوبيس مزدحم بالركاب أقفز في داخله، ثم اقفز منه عند أول منحنى، واقفز في غيره، لاتمش في خط مستقيم، راوغهم كثعلب يجرى جريًا ملتويًا بكل طاقته في قلب شوارع مصر القديمة الواسعة والضيقة.

كان ربيع ينفذ حرفيًا كل ماقالته له رحاب، حتى أنه شعر أنه يهرب كالمجنون من أشباح وهميين لامن مجرد أشخاص عاديين، وفجأة وهو يندفع خارجًا من إحدى الحارات الضيقة قطعت عليه الطريق سيارة ما، كانت تقودها فتاة حسناء ذات شعر ذهبي، ونظارات شمسية داكنة، وتلبس الجينز بلو وبادي صارخ اللون، وجذبته من غير وعي منه إلى داخل السيارة، ثم

انطلقت بسرعة الريح، وتوقفت مع فرملة شديدة في ركن منزو من الطريق القريب من سور مجرى العيون، وتبادلت النظر مع ربيع الذي كان ينظر لها كالمغيب، مدت يدها وشدت من يده حقيبة النقود وقالت له بلهجة آمرة:

- انزل.

أدار ربيع مقبض الباب الجانبى للسيارة بغية النزول، ولكنه نظر إليها مترددًا وهو يشير لاهثًا كالكلب إلى عرقه النافر الشديد الزرقان، فضحكت رحاب ملء شدقيها قائلة:

- افتح تابلوه السيارة، ستجد الحقنة في انتظارك.

وبلهفة راح ربيع يفتح تابلوه السيارة وأخرج كيسًا بلاستيكيًا أسود اللون كانت بداخله الحقنة وجرعة المخدر، وورقات عشر من فئة المائة جنيهًا، فنظر ربيع بلامبالاة إلى النقود، وأمسك بالحقنة حتى كادت تتكسر في قبضة يده، انصرف وفي أثره ظله يتراقص مع حركات جسده المهزوز على الأرض المتسخة بالفضلات والقارات التي يلقى بها الناس بإهمال في الطرقات، وكان صوت موتور السيارة التي غادرها في تلك الأثناء يدور في مسمعيه وهو يمضي مبتعدًا وقد امتزج بصوت رحاب وهي تتحدث في هاتفها المحمول إلى شخص ما قائلة:

- حسنًا هذه بداية طيبة لمستها بنفسي اليوم.

فجاءها صوته على الطرف الآخر قائلاً:

- حبيبتي، أكرر لكِ عرضي، لأنه يمكننا أن نختصر المسافة بيننا، يمكننا أن نكون معًا من غير كل مظاهر الخوف هذه التي تبدينها، ومن غير اللجوء لأعدائي ومن يكرهونني ويحقدون على؛ والذين أعرف جيداً أنهم يمدون لكِ الآن يد العون من أجل كسر أنفي ومن غير أيضًا هذا المرسال الأبله الذي أتاني اليوم في مكتبي وكأنه طفل تائه من أمه بال في سرواله.

ضحكت رحاب طويلاً، كانت تقود السيارة ببطء، مدت يدها إلى كاسيت السيارة وأدارت موسيقى هادئة وقالت بصوت أنثوي ساحر وهي في غاية النشوة:

- لا ياعزوزي، عرضك مرفوض، وكل خطوة ستخطوها معى كالكلب المطيع هي لحظة جديدة تُكتب في أيام عمرك القصيرة المتبقية.

سمعت رحاب تنهيدة غضب مكتومة على الطرف الآخر ولكأنما صدرت من جوف بئر بترول مستعر، كتمت هي الأخرى ضحكة بيدها، وأخيرًا نطق عزيز قائلاً:

- لايعلم آجال الناس إلا الله.

- وأنتم أيضًا.

- مَنْ تقصدين؟!.

- الذين أدخلوا الكيماويات المسرطنة إلى البلاد، ومواد البناء الفاسدة، وعقدوا الصفقات المشبوهة، وتآمروا على أرواح البؤساء من أبناء هذا الشعب المسكين، أليس هذا تحديدًا لآجالهم، يتألمون يتعذبون يمرضون يحتاجون إلى مشافيكم ومعداتكم وأدويتكم المستوردة من الخارج، أدوية باهظة الثمن يشتريها الأموات من أجل أن تمتد أعمارهم للحظات قصيرة ليس أكثر.

- حبيبتي الصورة ليست قاتمة هكذا.

- بل هي أسود من السواد نفسه.

- تعالي ياحبيبتي أريكِ عكس ذلك، أريكِ الدنيا الجميلة على حقيقتها، الناس ليسوا أشرارًا كما تتوهمين.

- لم أقل الناس، ولكن قلت الحيوانات من أمثالك.

- ومن قال لكِ ذلك ياحبيبتي؟.

- طفلة العشوائيات البائسة، أتذكرها؟.

سكت عزيز لفترة ثم قال بصوت مبحوح:

- حبيبتي أية عشوائيات تقصدين؟.

- سل حذاؤك اللامع، وسيارتك الفارهة، وبعدما انصرفت الصحافة وكاميرات التليفزيون من غابات القمامة التي تأوى أشباه البشر الذين تزعمون ياأهل الخير والمناصب الرفيعة أن نياط قلوبكم تتمزق حزنًا من أجل أحوالهم الصعبة، وقفت طفلة صغيرة مبهورة بحذاء الباشا اللامع، وسحنته التي لاتقل لمعانًا عن حذائه، في المرة الأولى أخذها عنوة في سيارته، ولاأدرى بعلم أهلها أم لا، في المرة الثانية قاومته، في الثالثة قاومته وتمنعت قليلاً، في الرابعة ذهبت إليه بنفسها.....

فقاطع عزيز كلماتها المسترسلة المتشنجة والتي ازدادت حدة وانفعالاً وانهيارًا قائلاً:

- أم م م م أنا الآن فهمت، وفي الخامسة عادت لتنتقم، أليس كذلك ياحبيبتي؟.

- كان يجب أن تفهم ذلك ياغبى من تلقاء نفسك، ومن وقت مضاجعتك لفتاة غير عذراء.

- تصورت أنك فتاة محترفة البغاء ليس أكثر ياحبيبتي.

- لأنك أعمى لا تنظر في وجوه النساء، لاترى فيهن غير.....، هيه وإلا كنت قد لاحظت بنفسك الشبه الشديد بين طفلة العشوائيات وفتاة الجامعة الحسناء.

- حبيبتي معك حق، لقد كنت أعمى، وأبصرت للتو ولامفر من أن أصلح خطئي.

- خطاياك تقصد.

- كل ابن آدم خطاء، حبيبتي أحتاج إليكِ، أجل أحتاج إلى من تقف إلى جانبى كي نفتح معًا صفحة جديدة بيضاء بلا خطايا، أجل حبيبتي أحتاج إليكِ بشدة.

- حبيبتي حبيبتي حبيبتي، لقد فلقت رأسي بها، وكلماتك المعسولة، وصوتك الحالم النعسان، وأنا التي إن صدقت الدنيا بأسرها من رابع المستحيلات أن تصدق ثعلب مخادع مثلك.

استرسلت في حديثها طويلاً كملتاثة مغيبة غرقت في بحر لاه من الذكريات البغيضة المؤلمة، وبصورة فجائية أتاها صوت عزيز الأجش وقد انفجر في نوبة هستيرية من الضحك وهو يقول لها:

- معك حق أيتها الساقطة الدنيئة أنا ثعلب لئيم، أنا ثعلب خطير جدًا هاهاها.

لم تفهم مغزى كلمات عزيز بشكل مباشر ولاسبب ضحكاته المجلجلة هذه، وأوقفت بشكل إضطراري سيارتها المنطلقة على الطريق السريع مع فرملة شديدة، كانت لاتصدق نفسها وهي تتلفت حواليها كالمجنونة في كل مكان.

(١٤)

لم يكن الذي غاب هو الذي عاد، كان ربيع الذي عرفته وحفظته عن ظهر قلب ببصيرتها لاببصرها ليس هو ذلك الجاثم أمامها مفترشًا الحصيرة البلاستيكية الكالحة الألوان، أنفاسه مختلفة، رائحته متغيرة، دقات قلبه لاتهتف بها لحظة غدوها أو رواحها كما كان الأمر من قبل،، قبل يدها نعم لحظة عودته بعد الغيبة الطويلة ولكنه لم يعد يقبل نسمات الهواء كما كان يفعل من قبل عسى إحداهن تنال شرف ملامسة خدها الأسمر المتغضن المتشقق كرغيف الخبز الناشف المحروق،أوقدمها المليئة بالأخاديد وكأنها فيل إفريقي عجوز، بل لم يسألها بلهفته المعتادة ماذا فعلت في غيبته وكيف دبرت أحوالها، كان مؤرقًا عصبيًا ينتفض كالمصروع بين لحظة وأخرى، وعندما أخبرته متهللة أن صاحبيه هيثم القللي و محمد علوان ينتظرانه في الخارج يريدان مقابلته طلب منها بعصبية أن تصرفهما فورًا، فقالت أم الزين وهي تقلب كفيها حسرة على ولدها:

- لماذا ياولدي؟!، بارك الله فيهما لم يتخليا عني لحظة واحدة في الأيام التي غبتها.....

هب ربيع من رقاده وهو يترنح في جلبابه الذي زادت كرمشته من طول الرقاد والتقلب الكثير على جنبيه، وقد هاش شعر رأسه، وزاغت عيناه، وتدلى لسانه من فمه، وسال ماء حلقه من زاويتي شفتيه وبدا كشبح مخيف وهو يقول بنبرة ثقيلة:

- لا تناقشيني وإلا تركت لك البيت والحياة إلى الأبد.

لم تصدق أم الزين نفسها، فرت دمعتان رغمًا عنها من مقلتي عينيها، وقالت وهي تمسح بيد مرتجفة حانية على شعر رأسه الهائش الخشن:

- ماذا أصابك يابني؟.

فصرخ ربيع صرخة عالية، فنظر هيثم القللي الذي كان واقفًا في صحن الدار الخارجي إلى محمد علوان، وقال وهو يغمز له بعينه غمزة ذات معنى:

- هيا لنؤدب هذا الشقى.

- بل نتركه وشأنه حتى يهدأ.

- وهل يعقل أن ننصرف قبل أن نعرف ماذا ألم به.

- لن نعرف لأنه هو نفسه لايعرف.

ومضى الاثنان في اتجاه محطة المترو، كان يتحدثان بصوت ضاعت معالمه وسط الأصوات الصاخبة ونداءات الباعة الجائلين وتباعين السيارات الأجرة، ولكن سرعان ما طغى صوت نقاط الخلاف بينهما على كل شيء، تشاجرا، تدافعا بالأيدي، مضى كل منهما في طريق، هيثم قفز من غير استئذان إلى داخل سيارة ميكروباص متجهة ناحية شارع الجيش وهو يشوح بيده لمحمد علوان من نافذة السيارة المنطلقة قائلاً:

- داهية تأخذك ياقفل.

نظر إليه محمد نظرة كلها دهشة وهو يشوح له بيده أن ينصرف من أمامه قائلاً:

- لا أريد أن أراك مرة ثانية حتى تعقل أيها المراهق الفاسد.
- وأنا لا أريد أن أعيش مثلك كعجوز في التسعين من عمره، أنا شاب أريد أن أنطلق وأن أجرب، وأن أصاحب البنات الجميلات وانتزع منهن خلسة القبلات الساخنة.
- هذا لأن خدك قد اعتاد على مهانة اللطم والشتم.
- هذا أكرم ليّ من أن أعيش حياة سرية مع نفسي، أقبل نساء الخيال و.....

أفاق فجأة محمد علوان من شروده والذي كان متشبثًا بالحلقة البلاستيكية المتدلية من سقف عربة المترو على صوت هاتفه المحمول وهو يلهج بالدعاء وهداية الحيارى، كانت هذه هي النغمة التي وضعها من أجل هيثم القللي على وجه التخصيص، فتنهد بضيق ورد من خلال هاتفه قائلاً ببرود:

- ماذا تريد مني أيها السخيف؟.

- حماده تعال بسرعة.

كان صوت هيثم يصل بالكاد إلى مسمعي محمد من بين جملة الأصوات الكثيرة الصاخبة التي كان يسمعها بوضوح، أحس بالخوف على صاحبه الذي كان آنذاك يتشاجر مع بعض البلطجية في الشارع، بدا كالأسد الجريح وهو يتحرك بين جموع ركاب عربة المترو المنطلق كالصاروخ، كان يريد أن يقفز إلى الخارج لكي ينجد صاحبه بأية وسيلة، دمعت عيناه، وعلا صوت دقات قلبه، راح يتمتم في سره بما يحفظه من أدعية لئلا يصاب صاحبه بمكروه، ولكنه ابتسم رغمًا عنه وقد دوي صوت هيثم في أذني ذاكرته اللاحقة بكلمات لم يفه بها بعد:

- ألم أقل لك أنك متطرف وغد، لوكنت من أهل الخطوة والكرامة حقًا لاخترقت حاجز الواقع، وتراكيب الزمان والمكان المعقدة، ولكنت

عندى في لمح البصر مثل أبي اليزيد البسطامي، وخلصتني من أيدي هؤلاء الأوباش النور الذين ضربوني ضربًا مبرحًا.

- احمد الله أنني حضرت من الأصل لنجدتك وأنا أعلم أن أمثالك لايتشاجرون إلا من أجل فتاة أو زجاجة كينا فاسدة.

كان محمد علوان يعرف مقدمًا أن هذا هو ماسيحدث وماسيدور بينه وبين هيثم القللي، لأنها لم تكن المرة الأولى التي يتشاجر فيها أحدهما فيأتي الآخر على عجل لنصرة صاحبه وعلى مابينهما من خلاف شديد في كل تفاصيل الحياة ودقائقها تقريبًا، وفجأة أحس محمد علوان وهو يحاول بجنون الوصول إلى صاحبه بمن يقرصه بعنف من لحم جانب بطنه السفلي المكتنز، فأدار وجهه بالكاد ليرى أي وجه من عشرات الأوجه المحدقة به هي صاحبة هذه اليد المجترئة المؤلمة، وسمع من يهمس في أذنه:

- أفكارك لا تعجبنا يا أخ محمد.

- أفكاري أستقيها من تعاليم ديني رأسًا، وليس من رؤوسكم أنتم.

- ألا ترى الأحوال الفاسدة ومعاداة شريعة الله جهارًا نهارًا، والنساء السافرات العرايا، والرجال المخنسون،

ومواقع الفسق والفجور والإلحاد على النت والمفسديون، فماذا ينقص أيضًا حتى تتأكد أننا في بلد كافر؟.

- بل ينقصك أنت وأمثالك العقل الذي يعى أن البلد الذي ينطق أهله بالشهادتين ليس كافرًا بحال من الأحوال، وأي مجتمع في الدنيا يحتاج إلى دعاة مصلحين مثابرين مبتكرين ومجاهدين بحق وحقيق.

- سحقًا لك، الجهاد الذي نعرفه غير الجهاد الذي تعرفه أنت أيها المارق المبتدع.

- أخي في الله فكر بعقل الإسلام ولاتجعل الإسلام يفكر بعقلك أنت، والرسول ﷺ أبى على صحابته أن يقتلوا أعظم المنافقين شرًا عبدالله بن أبي سلول، وحمل بنفسه متاع السيدة العجوز الكافرة حتى غايتها، والتي جعلت امتنانها له نصيحة وألا يتبع الداعي الأشر محمدًا وهي لاتعرف أنه هو الرسول ﷺ العظيم نفسه، فأسلمت لما عرفت حقيقته، وكان الرسول يبتسم في وجهها، لم يقتلها بل لم ينهرها حتى، فالأصل في رسالة الإسلام السمحاء «الحق»، «الرحمة»، «العدالة»، ومن دلائل ذلك نزول الوحى عليه ﷺ مبرئًا ليهودى غير مذنبٍ،ومُدينًا لأحد أتباعه من المسلمين الذين أذنبوا.

- ولكنه ﷺ طرد اليهود جلهم من المدينة في نهاية الأمر وقتل منهم من قتل.

- أذنبوا غير آبهين بما بينهم وبين المسلمين من تعهدات، فكان أن ردهم ﷺ من حيث أتوا، فلم يكونوا أصحاب الأرض الفعليين، يقال أنهم صدروا إلى أرض البادية مع شتاتهم التاريخي الدائم، وربما لأسباب أخرى، أما من قتلهم من بني قريظة فجزاءً وفاقًا لحنثهم بالعهود ولخيانتهم العظمى في وقت حربه الشرسة مع كفار مكة يوم الخندق، ومعلوم أن الخيانة العظمى عقابها القتل في أي مكان وعلى مر كل الأزمان وتباين الثقافات.

- قلت للإخوة منذ زمن أنك عميل أمن دولة، هه وما أشبهك بيهود بني قريظة.

- وأنا قلت لهم أيضًا أنك ومن هم على شاكلتك مثلاً سيئًا للكثيرين من الإخوة والذين يحبون الخير حقًا لهذا الدين وهذا الوطن.

- اخرس.

صرخ محمد علوان صرخة رهيبة وسقط على أثرها مفترشًا الأرض وسط ذهول العشرات من الركاب الذين تكدست بهم عربة

المترو الخانقة، حيث لا نسمة هواء، لارؤية، لاموضع لإنسان يريد أن يفترش الأرض بغية مقابلة الموت الآن على غير موعد.

في لحظة واحدة قدر للثلاثة أن يسقطوا وأن يفترشوا الأرض، كان هيثم القللي بشقاوته المعهودة قد تحرش بفتاة ركبت إلى جانبه في الميكروباص، مد يده خلسة في الظلام إلى ساقها، لم تنهه الفتاة ولم تأخذ ضده أي موقف، كانت متصلبة كتمثال جرانيتي، تصور أنها قد استلطفته، وقبلت تماديه في التمليس على فخذها المستدير المكتنز، كانت تنصب له كمينًا، فجأة صرخت ونغزته بسن حاد في يده، صرخ هيثم، توقفت السيارة جانبًا، راح يستغيث بسرعة بصاحبة لكي ينجده ممن تحلقوا حوله من كل حدب وصوب، لم يأت محمد علوان كما كان يُمني نفسه ونال علقة موت ساخنة، سقط بعدها مفترشًا أرض الطريق وهو ينزف دمًا مثله مثل محمد علوان الذي كان مفترشًا في اللحظة ذاتها أرضية عربة المترو، وغير بعيد عنهما كان ربيع يتلوى على الحصيرة وهو يصرخ متشنجًا، ورأسه في حواء نهدي أمه، وصوت سليط يأتي من ناحية قسم الموسكي البعيد هاتفًا:

- يام الزين يام الزين.

كان جسد ربيع الناحل في حاجة إلى جرعة جديدة مخدرة، ورحاب طالت غيبتها عليه أكثر مما ينبغي، وكانت هي الوحيدة في العالم التي تستطيع أن تطفئ نيران الألم المستعرة في جسده، لقد كانت تعطيه جرعات مكثفة من السموم المخدرة جعلته مدمنًا شرهًا في زمن قياسي، ولم تكن حاجته فقط إلى جرعة جديدة من المخدرات والبرشام والنبيذ الأحمر المعتق، كان كذلك قد أدمن على تعاطي جسدها النشوان، ورقصاته الأفعوانية، وقبلاتها القاتلة وكأنها مصاصة دماء محترفة، وهاهو ذا ميت لامحالة من غير الحقنة والكأس ولعبته الجنسية اللذيذة، وبيد ضعيفة تخلت عنها كل علائم القوة والاتزان دفع أمه وهو ينتفض من الألم صارخًا، وبالكاد وقف مترنحًا وقد زاغت عيناه تمامًا، وسال لعابه من جانب فمه، وبلسان ثقيل متدل قال:

- رحاب رحاب.

ثم جرى خارجًا من الدار وهو يتطوح كخيال المآتة، أم الزين راحت تجرى في أثره متعثرة في ظلام عينيها وهي تهتف به صارخة أن يعود، ولكن ربيع كان لحظتها لايرى ولايسمع ولاينطق إلا باسم واحدة فقط «رحاب»، والذي خرج يفتش عنها في كل مكان، ويتوسل توسل العبد المطيع إلى الإنس والجان أن يرشدونه إليها بأي ثمن.

كان ربيع يمضي في طرقات القاهرة شبه الخالية من المارة في الثالثة صباحًا، كان حافيًا، وجلبابه ممزقًا، وشعر رأسه أشعثًا مهوشًا ومعفرًا بالتراب، وكان جسده ينزف رحابًا وليس دمًا طبيعيًا، والتي كانت ما أشبهها بالفتاة باندورا في الأساطير اليونانية القديمة، والتي منحتها الآلهة كل شيء الجمال والحب والذكاء، وكذلك قلب كلب، ونفس لص، وعقل ثعلب مراوغ، وهي التي فتحت خلسة صندوق زيوس والذي انبثقت منه كل شرور وآلام العالم، لِمَ لا والأسطورة تقول أن فولكانو إله الحديد والنار هو الذي خلق طبيعتها النارية، لقد عافها برميثيوس سارق الشعلة المقدسة وسر النار الإلهية، وهو يعلم علم اليقين أن زيوس أرسل إليه أول امرأة في الوجود لمعاقبته والانتقام منه، ولكن أخيه ابيمثيوس عشقها وهام بها حبًا، كذلك كان ربيع ينظر إلى فتاته كونها أسطورة لامثيل لها في الوجود، ولكن هل خُلقت رحاب حقًا من أجل معاقبته وفتح صندوق الشر والألم في داخله، كان هذا هو السؤال الذي جال بشكل لحظي في خاطره، والذي أفاق لوهلة عندما لامست وجهه نسمات هواء نهر النيل العليلة، وتسلل إلى عروقه خدر من نوع آخر، كان أكثر لذة وحلاوة من المخدر الذي اعتاد عليه في الآونة الأخيرة، وفجأة سمع صوتها وهي تناديه قائلة له:

- ربيع لماذا تمضي من هاهنا، يمكنك أن تسير في هذا الاتجاه أو في ذاك، ألم تقل ليّ من قبل أنه لايوجد اتجاه إجباري في الحياة، وأنه يمكن للمرء أن يتوقف عن السير، أن يتراجع، أن يمضي في اتجاه آخر.

- قلت ذلك يوم كنت حرًا.

- العبودية انتهت، المال الجنس المخدرات، السياسة الإعلام الفقر الحروب، وغيرها من أدوات العبودية هي كلها التي تشعرك بحريتك كلما كنت أقوى منها، بل من الحياة ذاتها بكل بهارجها ولآلئها وشهواتها.

لم يكن الصوت لرحاب ولكن كان لفتاة أخرى، فتاة يعرفها ربيع جيدًا ولكنه لم يتذكرها، أو شاء ألا يتذكرها، كان يشعر أنها تسير معه جنبًا إلى جنب، خلفه، قدامه، فوقه، تحته، بل في أعماق نفسه، توقف صارخًا:

- إليكِ عني، ماذا تريدين مني.

- أريدك بخير كما أردتني دومًا كذلك.

- قلت انصرفي، انصرفي.

- ليس قبل أن أطمئن عليك.

- أوه.

صرخ ربيع صرخة مدمدمة تردد صداها في أنحاء المدينة النائمة، خلع نعليه وراح يضرب بهما الهواء وهو يسبها ويلعنها بأشد اللعنات لكي يصرفها، صيحاته الجنونية أيقظت بعض السكان والذين راحوا يتطلعون إليه من شرفات العمائر العالية، كانوا يضحكون سخرية منه، ويمصمصون شفاههم ويقلبون أكفهم عجبًا من هذا الهائم وحده فجرًا ومشهرًا نعليه في الطرقات الخالية، أحدهم راح يسبه ويأمره أن ينصرف بعيدًا وهو يقول:

- امش من هنا أيها الكلب الأجرب المخمور.

فأشار إليه ربيع وإلى غيره بطرف حذائه وقال له وهو يوزع نظرات الاتهام على النوافذ العالية:

- وأنت أيضًا سكران، وأنتِ، والأستاذ، والهانم، كلكم، بل كلنا سكارى.

أتاه مرة أخرى صوتها الناعم الباك:

- ربيع لماذا تفعل ذلك بنفسك؟!.

- اخرسي، المسحراتي يلقون له بالحلوى، وأنا يصرون على أسنانهم غيظًا مني ويحدفونني بالشتائم النابية والأحذية القذرة، لست أدري ما الفرق بيننا وكلانا مسحراتي.

ثم راح ينادي بعلو حسه:

- إصح يانائم، إصح يانائم.

وجرى ربيع كاشفًا عن ساقيه النحيلتين وهو يهتف بصوت عالٍ ملأ الدنيا صخبًا مزعجًا:

- رحاب.

اختفى ربيع، وكان الطريق خاليًا تمامًا وبدا وكأنه لوحة شبحية صامتة اللهم إلا من صوت همهماتها ونهنهاتها التي تلاشت شيئًا فشيئًا مع ارتفاع ضوء النهار الساطع، وانطلاق السيارات والمارة في مختلف الإتجاهات.

كانت أم الزين التي لفحت وجهها حرارة الشمس القائظة جالسة إلى عتبة الدار وهي واجمة، كانت يداها إحداهما مرتكنة إلى ركبة ساقها المثنية تحت مقعدتها، والأخرى كانت تضغط بها بعصبية مكتومة على الصرة القماش الكائنة إلى جوارها، والتي لملمت فيها أغراضها الشخصية، كانت قد عقدت العزم على الرحيل إلى الأبد إلى أرمنت الحيط، فالموت هناك له طعم آخر أكثر حلاوة وراحة من الموت في المدينة كالأغراب، مدينة لم تعد تخشع بعد للمعاني القدسية التي تحويها كلمة الموت، وكثيرًا ماكشفت عن رغبتها هذه لابنها ربيع والتي كانت

تنتظر عودته ثانية على أحر من الجمر، فكان يضحك طويلاً، ويدنو منها، ويقول وهو يقبل كتفها المحني الضامر:

- أطال الله في عمرك يام الزين، ثم ماالفارق أليس تراب هنا هو نفسه تراب هناك؟.

ولم تزل أم الزين تذكر بماذا أجابته، لم تجبه وقتها بسرعة ولكنها كانت تجتر في مخيلتها أوجاع سنوات طوال خلت، ثم قالت:

- تراب هناك يا ولدي يمشي عليه بشر طيبون، وتراب هنا تمشي فوقه آلات من حديد ونار ومن لحم ودم أيضًا.

صار صوت قطار الدرجة الثالثة هو أجل أمانيها في الحياة، ولكأنما كانت تنظر في ساعة القدر تستمهله حتى يعود الربيع الغائب، وإن لم يعد فلن تستمهل روحها أكثر من ذلك، وربما فارقت جسدها المتخشب أمام باب دارها في حارة المنسي وطارت بعيدًا إلى هناك، حيث يريد الأسوياء أن يموتوا، فإذا لم تكن للمرء حيلة البتة في مجيئه، فالحيلة كلها في اختياره موضع الأرض التي سيدفن فيها، ومَنْذا الذي سَيُوَاري الثرى؟، نفس طيبة أم نفس خبيثة؟، وهنالك تذكرت أم الزين أنها لم تؤذ مخلوقًا قط في حياتها، بل أن ما لاقته في مشوار عمرها الطويل من ظلم وأوجاع وقهر ومعاناة لكفيل بأن يدفعها دفعًا لبغض

الناس وكراهية المجتمع والحياة، ولكنها لم تفعل وجدلت من الصبر والتحمل حبالاً طوالاً، ولم يكن فقدانها لبصرها بمحض الصدفة، وإنما كان بسبب التضحيات الهائلة التي قدمتها من أجل إتمام رسالتها كأم باتت مسئولة بمفردها عن ولدين وبنت بعد أن فارق والدهم الحياة، أضطرت للعمل في قمائن الطوب الأحمر في منطقة طناش غير البعيدة عن القناطر الخيرية، عيناها لم تتحملا اللهب المنبعث من أفران حريق الطوب، والأدخنة السوداء الخانقة المتصاعدة من أبراجها العالية، كانتا تؤلمانها بشدة، وكذلك رئتاها والشُّعب الهوائية، ولكنها تحاملت على نفسها من أجل صغارها ولقمة العيش، وعندما فقدت بصرها واحترق صدرها لم تحزن كثيرًا كيوم ذهاب إبنتها سمر بلا عودة، أو كاليوم الذي عرفت فيه سليط ابنها الأكبر على حقيقته وأنه يتاجر في الممنوعات والبلاء الأزرق، أما ربيع فلقد كان هو حزنها الحقيقي كما كان دائمًا أنشودة أملها في الحياة وسر بهجتها وسعادتها، وفي غمضة عين وانتباهتها تبدلت أحواله، وأصبح حطامًا وليس الوردة اليانعة المفتحة العطرة، وكانت لا تعرف على وجه اليقين ماذا أصابه بالضبط، وهل للفتاة لبنى أو رحاب التي كان يهلوس كثيرًا باسمهاأدنى سبب لما أصابه، ولوهلة تصورت أن سليط شقيقه الكبير قد يكون هو من أخذه في سكة الشر والإدمان، لِمَ لا وقد سمعته غير

مرة وهو يراود أخيه ويحرضه كإبليس اللعين على سكة الحرام بسيل من المغريات، ولكن ربيع كان في كل مرة يزداد فيها قيمة عرض سليط له يزداد صلابة وقوة في رفضه، وتساءلت في نفسها هل ضعف الولد وخارت عزيمته أمام متطلبات الزمن ومغريات الحياة، أم غوته حرمة من حريم المدينة البذيئات المتمرسات واللائي لايعرفن للحياء والأخلاق سكة، كانت أم الزين تعرف من هو سليط جيدًا، كما كانت تعرف إلى حدمٍ من هي لبنى والتي تعاطفت مع قضيتها من قبل، بل ذهبت لزيارتها بنفسها في المركز الصحي وإن كانت تنشد قبل أي شيء نصرة سمعة ابنها التي تلوثت ولاكتها بشراهة ألسنة نمامات الحارة القبيحات.

ولكن كانت رحاب والتي لاتعرفها بالمرة هي اللغز العجيب،

والتي نطق ربيع اسمها مرارًا وتكرارًا في الآونة الأخيرة وهو يهذي ويثرثر بكلمات كثيرة فارغة ولا معنى لها، وذهلت أم الزين عن كل شيء في الحياة من حولها اللهم إلا في سؤال واحد فقط: «ومَنْ تكون رحاب هذه، وكيف السبيل إليها؟!» ، فعساها تكون هي المفتاح الحقيقي الذي يمكن من خلاله حل لغز ابنها العجيب!!؟.

(١٥)

ربيع نفسه لم يجد رحاب في أي مكان من تلك الأماكن التي اعتاد أن يجدها فيها، حتى جبانات الدراسة لم يفته أن يذهب إليها ويفتش في مخابئها الوعرة عن رحاب العوضي، وكذلك في مدفن عائلة صاحبه محمد علوان ذى السلالم الحجرية المهشمة، وكان من رابع المستحيلات أن يعرف طريق الشاليه الذي أخذته إليه عنوة ولحظة فقدانه الوعى، وحينما اصطحبته بالسيارة الرينو البيضاء إلى القاهرة كانت في غاية الحيطة من أن تترك دليلاً واحدًا يرشده أو يرشد غيره عن مكانها، أحس ربيع بالحسرة لا لأنه لم يكن موضع ثقة للفتاة التي أحبها وفتنته أيما فتنة ولكن لأنه لم يكن هو نفسه موضع ثقة لنفسه، لقد انهار مثل جبل عملاق من القش، وتخلى عن كل مبادئه التي كان يتشدق بها كثيرًا، ويدافع عنها بكل ماأوتي من قوة وحجج، الآن هو يزحف لاهثًا مع طراطيف الليل المتشح بسوادات الأفق البعيد إلى عشة سرية مدفونة بين آجام من الأشجار العالية بالقرب من «أوسيم»، كان سليط شقيقه ورفاقه يطلقون عليها «ستينكيبار» وهي كلمة أجنبية تعني الماخور العفن، مجمع أهل الفسق والفساد والريبة، كانوا يتقابلون هناك لقضاء وطرهم وتعاطي الملذات، سليط كان هو

باب الأمل الأخير الذي لم يوصد في وجه ربيع بعد، كانت حاجة ربيع إلى الجرعة المخدرة قد وصلت به إلى حالة من الجنان الرسمي، كان يشعر في قرارة نفسه أن رحاب لم تتخل عنه ولكنها تضيق عليه الخناق بكل ماأوتيت من حيلة لكي يكون عبدًا مطيعًا، العبد الذي لايخرج عن طوع سيده أبدًا، ويسمع ويطيع فقط وأيًا ماكان المطلوب منه، وتساءل في نفسه ألا تعلم هذه الشيطانة أنها تدمر السلاح الوحيد الذي في يدها، وأنها تدفعني دفعًا للجنون، للقتل، لفعل أي شيء في مقابل الخلاص من النيران التي تسرى في بدنى، والدماء الفائرة في عروقي، هل هذا هو ماتريده، أهي ذي مهمتي قد انتهت بعد أن أحضرت لها حقيبة النقود من حنك السبع كما يقولون، أوَ يعقل أن تكون مهمتي قصيرة للغاية معها إلى هذا الحد، وسرعان ماسحرتني، استغفلتني، خدرتني، استعملتني في تنفيذ خطتها ثم ألقت بيّ في سلة القارات، رحاب امرأة مجرمة محترفة في الإجرام بكل ماتحمله الكلمة من معنى، ومثلها يفكر ليس فقط في تنفيذ جريمة ما، ولكن في كيفية محو آثارها، وتأمين نفسها ثم لايهم على حساب مَنْ، هكذا كانت نفس ربيع المضطرمة تحدثه، وهولايدرى ماذا سيكون موقفه لورآها ماثلة أمامه في التو واللحظة، هل سيقتلها ويريح العالم ونفسه من شرها؟، أم سيرتمي عند قدميها طالبًا نظرة من علٍ وفتات اللذة والمخدر

كأي كلب ضال؟، صرخ ربيع في صفحة الأفق المعتمة التي تمثلت أمامه وجهًا شيطانيًا يضحك سخرية منه قائلاً:

- أي لعنة هذه؟.

الحياة ما أشبهها بالمرايا العاكسة ترينا وجوه الأشخاص، الصور، ولكن الوجوه تتغير بسرعة، والصور والحكايا تتبدل بغيرها، فهل كانت رحاب مجرد صورة من بين آلاف الصور التي رآها ولم يرها في حياته مرت خلسة أمام إحداهن، لاحت له قليلاً من خلال مرآة ما ثم تلاشت كومضة خاطفة، العظماء أنفسهم، النبلاء والصعاليك أيضًا مروا خلسة من أمام هذه المرايا ثم أين هم الآن؟!، كلهم ذهبوا بلا رجعة، ومثلهم سوف نمضي ويمضي الجميع، وتبقى المرايات، كان هذا هو الخاطر الذي راود ربيع وهو يقف لاهثًا أمام باب العشة الخشبي العتيق، كان المكان مقبضًا ويبعث على الغثيان، وقف ربيع مستترًا في المكان المظلم وهو يسدد نظرة رجاء ميتة إلى المكان المضيء في الداخل، فرجة الباب راحت تتسع مع صوت صرير الباب وهو يفتح، وتسفر في الوقت ذاته عن امرأة رقيعة سدت عليه باب الدخول وهي تمضغ اللبان وتضع يدها في خاصرتها بخلاعة، وبنظرة متفحصة أخذت تطل في وجهه الشاحب وتقول لصاحبة العشة التي سألتها عن هوية الطارق:

- كلب لاهث ياست إحسان من كلاب السكك الضالة.

جاء صوت إحسان من الداخل وهي تضحك بمجون:

- حاذري من أن يكون مسعورًا ياغالية.

نظرت غالية مليًا إلى ربيع وقالت وهي تمصمص شفتيها حسرة عليه وإعجابًا به في الوقت ذاته:

- لا يبدو عليه السعار، هو مجرد كلب لولو مسكين.

ولكن سرعان ماشدها سليط من يدها بحدة والذي جاء على عجل من ناحية الداخل وهو يقول:

- يابنت الأبالسة، هذا أخي الأستاذ ربيع.

ارتمى ربيع بكل ثقله على الأرض في ركن منزو من المكان والذي فرش على طراز الخيام العربية، المقاعد القريبة من الأرض ذات البسط الحمراء التي تكسو صفحاتها الرديئة رسوم الأرابيسك الهندسية الباهتة، والمرتعشة تحت أضواء ملونة بالنشوة، والتي كانت تهدأ تارة وترتفع تارة أخرى مع دقات الموسيقى الصاخبة،وفتيات عاريات بدينات بملابس أولاد البلد، وبالجينز الممزق وحمالات الصدور المنتفخة يعربدن راقصات بين مريديهن، ورائحة الشيش والسجائر الملفوفة وكئوس الجعة تعبق المكان كله وتخنقه بالدخان الكثيف المنبعث من أحلاق الحضور، وعند مواطئ الأقدام كان ربيع يشير إلى عرق ذراعه المزرق إلى أخيه وهو يقول بصوت يسمع بالكاد:

- حقنة، حقنة.

- حقن وشم وبرشام وملفوف الله يلعنك، الله يحرق الذي أخذك إلى هذه السكة، يا أبله نحن نبيعه فقط ولا نستعمله.

قالها وهو يغمز له بعينه، ثم دنا منه وهو يسدد إليه نظرة شيطانية، وقال له بصوت هامس للغاية:

- نحن نخدر البلهاء، نسكرهم حتى الضياع، نقدم لهم الساقطات، نعميهم بما لذَّ وطاب، ننسيهم أنفسهم، نخرسهم إلى الأبد، وإن نطقوا لايطلبون شيئًا يزعج أسيادنا، بركة ياجامع الباشوات الذين يسكنون في العلالي لا يغضبون من خدامهم المطيعين، والضائعون أمثالك يرتمون عند قدمي يتوسلون إليّ يقولون لىّ ياباشا، هه باشا خدام الأمر سيان عندي، المهم أن أخرج من اللعبة كسبان والقلب راض والجيب ملآن، والحمد لله فوق كسبان وتحت كسبان، وأنت في النهاية الأبله الخسران.

أرجوك سوف أموت، سوف أموت.

كان يلهث ويرتعش ويتمرغ في التراب ويصرخ بصوت عال رهيب، كان كمن يموت الموتات الفارسية القديمة التسع، لايموت

دفعة واحدة ولكن على دفعات، يموت جزءٌ بعد جزء، ضحك سليط وهو يدفع بقدمه شفتى أخيه التي كانت تكيل له لثمات التوسل والرجاء، أشار للفتاة غالية أن تأتيه فورًا بحقنة مخدرة، ثم التفت من عليائه ونظر إلى ربيع المفترش الأرض قدامه وقال له بحسرة وهو يلقى بالحقنة في وجهه الذائب في العرق:

- أردتك أن تكون معي دائمًا، ياخسارة أنت الآن مجرد خرقة بالية ليس أكثر، خذ حقنتك ورح في داهية.

لم يبال ربيع بما ناله من نظرات احتقار وسخرية، وهجم على الحقنة التي كانت ملقاة إلى الأرض الترابية، كان سنها المدبب الذي اختلط بالثرى قريبًا جدًا من ذراعه المرتعشة وعرقه النافر بشدة، كان مغمض العينين وقد حداه أمل الخلاص اللحظى من نيران الحاجة إلى جرعة مخدرة، ثم ماذا سيحدث بعد ذلك لايهم، وربما جاء متوسلاً كالكلب لأخيه أو خرج كأي هجام شرس بالمطواة الحادة على ضحية من الضحايا البؤساء لكي يجرده من النقود التي يعود بها مرفوع الرأس والهامة، ثم ليشتري المخدر الذي يروق مزاجه لفترة من الزمن، ثم لايهم ماذا سيحدث بعد ذلك، وتدور دائرة العدم الهوجاء، حتى تحين اللحظة التي ينزوى فيها كأى كلب أجرب في خرابة من الخرائب المنتشرة في البلاد ويلفظ أنفاسه الأخيرة، كان سن الحقنة الدقيق للغاية قد انغرز في لحم ذراعه المتخشب، وبإبهامه راح يضغط

على مدفع الحقنة وكمن يطلق رصاصة الرحمة على نفسه، كان السائل على وشك أن يتسلل إلى عرقه، يب في دمائه، تتسارع دقات القلب، وتنفر الشرايين، تضخ الدماء الملوثة إلى المخ، ينتعش قليلاً، وربما توسل عند قدمى الفتاة غالية شبه عارية النهدين لكي تكون نسخة مكررة من رحاب فاتنته اللعوب، ولكن فجأة أحس بيد ما ملساء ناعمة تقبض برقة على يده، تمنعه من أن يدفع السائل الشيطاني في عرقه، سكنت الدنيا كلها من حوله، انطفأت كل أضواء العالم، واختزلت في شعاع لبنى كان يطوق وجهها الجميل الملفوف بطرحة ناصعة البياض في قلب هالة من النور، كانت توصف بالشيطانة وهي الآن تبدو كمَلك رائع نزل من علياء السماء، وقالت له بصوت عذب رقيق للغاية:

- يمكنك أن تمضي في اتجاه آخر، صدقني.

نظر طويلاً إلى الحقنة، ثم في صفحة وجهها الملائكي الأبيض المشرق القسمات، كانت تبتسم له، وتمد له يدها الأخرى وهي تحفزه على ترك الحقنة والنهوض، في البداية تشابهت عليه الوجوه، واختلطت عليه الأحداث، حتى أنه تصور أنها الفتاة رحاب العوضي قد جاءت تكفر عن خطيئتها، وتمضي به بعيدًا عن هذا المكان الموبوء، والضحكات السمجة، والنفوس المريضة، ولكنها لم تكن رحاب، وكان صوتها هو ذات الصوت الذي كان يسمعه كثيرًا في الآونة الأخيرة، وبرقة النسيم أخذته

من يده وانصرفا خارجين من باب العشة الخشبية، كان يصدر عنه صريرًا مزعجًا ولكنه بدا لربيع كلحن سماوى يبعث على الرهبة والخشوع، لِمَ لا وقد خرج للتو من بيت الشيطان ودخل إلى مسجد الحياة الفسيح، مسجد بلاسقف، بلا أسوار وكأنما ليسع الجميع، وهنالك انفجر في نوبة من البكاء الحار وقد داعبت وجهه نسمات الفجر العليلة، وخر على ركبتيه اللتين انغرزتا في وحلة الأرض السمراء، وقد دفن وجهه بين كفيه، وشعر لأول مرة منذ زمن ليس بالقصير أنه يستنشق هواءً نقيًا زكيًا، وعندما راح يتطلع إلى الفتاة التي أخذت بيده وجد أنه يتطلع إلى سراب، فهب واقفًا وهو يتلفت حواليه كالمجنون، وصوتها الحانى يأتى ممتزجًا بشريط الذكريات الذي كان يدور في رأسه وهي تقول له:

- يمكنك أن تمضي في اتجاه آخر، أنت كنت تقول ليّ ذلك كثيرًا، هيا سوف تنجح وسل مجربة.

أحس ربيع وهو يتطلع إلى صورتها المرتسمة في مخيلته أنها لاتنطبق على صورة أية فتاة عرفها من قبل، ولكنه أحس في الوقت ذاته أنه يعرفها جيدًا أكثر من أي فتاة أخرى عرفها في حياته!!، بل يعرفها أكثر من معرفته بنفسه، وأنه أنما كان يمضي في رفقة روح طيبة هائمة في سماء الخلود لامجرد إنسانة عادية.

(١٦)

نام ربيع في فراش الطبيعة الطلقاء الوثير كما لم ينم في حياته من قبل، توسد الأرض الطينية والتحف السماء، وأفاق عندما لامست أهداب عينيه أشعة شمس الصباح الحانية، كان أحسن حالاً من ذى قبل، وأدرك أنه قد أفاق على حقيقته المخجلة وليس من المادة المُخدِّرة التي كانت تجرى بكثافة في عروقه كدماء جسده، والتي كان يعلم جيدًا أنه لن يبرأ بسهولة من آثارها ومهما عولج منها، ولكنه كان قد عقد العزم في داخله على مقاومة رغبته القاتلة إليها ولو كان ثمن ذلك هو مواجهة الموت نفسه، فلقد اكتشف بعد أن أفاق من غفلته على حقيقة نفسه، وأنه مدعى شعارات ليس أكثر، مثله في ذلك مثل كثيرين غيره، الآن أدرك أنه لافرق بينه وبين هؤلاء وأولئك الذين كان يوجه إليهم النقد اللاذع، بل حسب نفسه أكثر سوءً وسلبية منهم جميعًا، وفي المرة الوحيدة التي حاول أن يكون فيها إيجابيًا ذهب كالمغيب الفاقد السيطرة على نفسه إلى بيت الفتاة الغامضة لبنى لكي يحررها من وراء أسوار عالمها البغيض، بل أن جسده سرت في أوصاله سموم المخدرات والسكر والمجون والحب يوم عرف رحاب العوضي ولم تكن حقنة السائل المخدر قد نكتت

بعد في عرقه، ولاعرف فمه طعم الجعة، ولاشمت أنفه من قبل رائحة دخان السجائر المحشوة بالمخدر المنبعث من طاقتيها، غير أن ربيع توقف طويلاً أمام كلمة الحب التي طرأت على مخيلته، وهل كان مايكنه في نفسه ناحية رحاب جدير بأن تطلق عليه المعنى الخلدى لكلمة الحب، وهل يجوز لعلاقة آثمة أن تجول في قدس أقداس مملكة الحب الطاهرة، لقد حاول بالفعل أن يثني الفتاة عن غيها وكراهيتها للمجتمع والناس، وعن حبها المتوحش للذات، حب من نوع غريب حتى بدا له وكأنه حب الإنتقام نفسه لاحب الذات والملذات.

كان ذهن ربيع مشتتًا، في البداية فكر في أن يعود إلى أمه، ويلقي بنفسه تحت قدميها متوسلاً إليها أن تسامحه وتغفر له جل خطاياه، وفكر أيضًا في أن يذهب إلى أقرب مكان لمعالجة الإدمان وتخليص جسده المخدور من السموم التي تسري فيه بشكل وحشى، كما فكر وهو يتطلع إلى ناحية ما أن يقدم بلاغًا للشرطة ضد الإستينكيبار الذي يعشش فيه ندماء إبليس من المنحرفين والبغايا وعلى رأسهم شقيقه الملعون سليط، فكر ربيع في أشياء كثيرة ولكنه قام ناهضًا، وسار في الاتجاه الذي لم يطرأ له على بال، والشيطان يوسوس له ويغريه أن يكمل بحثه عن الفتاة اللعوب رحاب والحقنة والكأس، بل جسد له

الأشجار والنخيل من حوله في صورة رحاب وهي عارية في قمة عربدتها وغُلَمَتها وتدعوه إلى حضنها الدافئ، ربيع كان يتطوح أثناء سيره في الأرض الزراعية التي مالبثت خضرتها الرائقة تتلاشى وتختفي تحت وطأة أشجار الخرسانة الأسمنتية القبيحة، أشجار من نوع غريب تبني ولاتزرع وبأيدي الفلاحين أنفسهم، وسرعان ماحلت محل روعة الطبيعة الوجوه العابسة الكئيبة، والمنازل المتلاصقة والتي تشعر الإنسان وكأنه يمضي في متاهة المستحيل ذاتها، توك توك ما من بين عشرات التكاتك التي تشبه ضفادع القنايات كاد يصدمه، وأثناء عبوره الطريق الترابي وهو يتطوح كالريشة سُبَ كثيرًا من المارة بأمه وعرضه وكل غالٍ ونفيس في حياة المرء، قفز في قلب توك توك صغير وأخبر سائقه عن الوجهة التي يريد الذهاب إليها، انتفض السائق فرقًا وهو ينظر دهشة إلى جلباب ربيع الممزق، وهيئته الشبحية المخيفة، ولسانه اللاهث المتدل ولعابه الأبيض النتن الرائحة والسائل من زاويتي فمه، وقبل أن يصرخ في وجه ربيع صرخة تلفظه ليس من قلب التوك توك ولكن من الدنيا بأسرها أخرج ورقة بمئة من الجنيهات وقال للسائق:

- هيا.

انتشل السائق الذي كان يشبه الصعاليك المائة جنيهًا من يد ربيع المرتعشة ودسها في جيبه وانطلق كالريح، وكان السؤال الذي تساءله ربيع إلى نفسه بشكل لحظي وهو يخرج ورقة النقود من جيبه والتي لا يتذكر من أين أتته:

- هل وصل بيّ الحال إلى النشل والسرقة؟!!.

وانكفأت رأسه رغمًا عنه إلى خارج التوك توك وراح يتقيأ وقد قهرته وضعضعته أزمة نفسية حادة، مد السائق يده إلى الوراء خلسة ودفع ربيع بقوة إلى خارج التوك توك المنطلق بسرعة، انطرح جسد ربيع الناحل أرضًا، دار عدة دورات على أرض الطريق المتربة المليئة بالحصى والقارات، ولم يوقفه غير اصطدامه بجذع شجرة أم الشعور الثاوية عند أطراف مصرف أسن، تنبعث منه رائحة كريهة لاتطاق، المرايا العاكسة تتراص مجددًا في سبيل الفتى أينما سار، تعكس له من هنا وهناك مئات الصور القبيحة، وامرأة تحمل جرة ملآنة بمياه المصرف الأسنة، تنطلق وسط الزحام والسيارات العشوائية والباعة الجائلين، وأصوات صاخبة وضحكات ماجنة وروائح الشيشة الخانقة التي تأتي من مقاه مفترشة عنوة عرض الطرقات، تعثرت حاملة الجرة فجأة في حفرة من مئات الحفر المنتشرة في كل مكان، سقطت بطولها كله أرضًا مضافًا إليه ذراعيها

الممدودتين للأمام ، تشلحت من ملابسها، بان فخذيها الأسمرين الضامرين وملابسها الداخلية البالية، انكسرت جرتها الفخارية البنية اللون، اندلق الماء، امتزج بتراب الأرض فصار طينًا لزجًا عفن الرائحة، قامت تسب وتلعن.

المارة انقسموا على أنفسهم بين فريق يضحك سخرية من الموقف، وفريق آخر راح يمد لها يد العون ولسان حاله يكاد ينطق:

- اسم الله عليكِ.

وآخرون غير أولئك وهؤلاء مضوا في سبيلهم وكأن الأمر لايعنيهم من قريب أو بعيد، وشيخ عجوز كان خارجًا للتو من زاوية المسجد راح يقلب كفيه ببعضهما البعض عجبًا وهو يمصمص شفتيه حسرة ويتمتم قائلاً:

- لو عسرت دابة في الفرات لسُئل عنها عمر يوم القيامة.

وشاب مهوش شعر الرأس يلبس الجينز الأزرق الممزق المهترئ، والبادى الأبيض الذي تتدلى عليه سلسلة حباتها من الجعران الفيروزى اللون، وتلطخ صدره صبغة رخيصة لأصابع كف حمراء دامية علامة الخمسة وخميسة في عين كل حاسد حقود تندب فيها رصاصة، والذي التفت ناحية الشيخ وراح يقول له ساخرًا:

بل ادع للحفرة التي كشفت لنا عن هاتين الساقين الفاتنتين.

امش اللّه يلعنك ياشاذ.

عاد إليه الشاب وقال له بانفعال:

- أنا لا أتحدث عن ساقيك أنت ياخريج المتاحف العتيقة.

- بل أنت أيها الشاب الضائع قليل الأدب خريج متاحف الحنوثة والفجور .

- وأنت عجوز مخرف.

وسرعان ما تحولت المشادة الكلامية إلى مشاجرة عنيفة

بالأيدي والسنج والمطاوي، ودماء متناثرة على أرض الطريق، وصراخ وعويل، ابتسم ربيع رغمًا عنه، ونسيَ لبرهة آلامه والدماء التي تنزف منه، برهة تذكر خلالها المشاجرات والمشاحنات الكثيرة التي كانت تقع بين صاحبيه هيثم القللي ومحمد علوان، تلك المشاجرات التي لا تختلف كثيرًا عن المشاجرة الدائرة قدامه عن كثب، وكانت تقترب منه شيئًا فشيئًا مثل لسان اللهب الحارق، أحس أنه لو استمر في مكانه أكثر من ذلك لصار طرفًا في معركة لا ناقة له فيها ولا جمل، ومع تجدد آلام عروقه النافرة التواقة إلى المخدر تذكر أنه يجب

أن يمضى إلى هناك، وتذكر العهد الذي قطعه على نفسه، وأن الموت أهون عنده من أن يظل أسيرًا لشيطان الهوى ورغبات الجسد الفانية، وأنه لا مفر له غير مقاومة السير في هذا الاتجاه الخاطئ؛ الذي يريده البعض للبعض الكثير الآخر أن يكون إجباريًا.

قام ربيع من فوره يركض مبتعدًا عن المكان الموبوء بالجهل والفقر والكراهية، كان ربيع لا يكره الفقر في حد ذاته ولكنه كان يبغض من كل قلبه الذين يصنعونه ويقدمونه على طبق من ذهب المخادعة لملايين من البشر، وظل يجري في اتجاه ما يعرفه ولا يعرفه، وهو ينظر للمارة في الطريق نظرة من يدعوهم للحاق به بدلاً من تلك النظرات المشمئزة المتشحة باللعنات والسباب التي يسددونها إليه، ولكنها لم تكن أبدًا حجر عثرة في سبيله.

خيم الظلام على المدينة المغطاة بغيمة سوداء كثيفة وارت وراءها ضوء الشمس، وقف لاهثًا أمام البناية العملاقة المكسوة بالزجاج العاكس الشديد اللمعان، ولم تشفع له عند حراس البناية كلمة مرسال التي أدخلته رأسًا ذات مرة كملك متوج إلى مكتب عزيز الباشا الفاخر، رجال الأمن راحوا يطردونه من المكان، ويدفعونه إلى الخارج مع سيل هائل من الشتائم واللكمات والركلات، سقط أرضًا، نهض واقفًا بإعياء وهو

يلملم شتات جسده المخدور، نظر مباشرة في اتجاه كاميرات المراقبة المثبتة في زوايا متنوعة من البناية والتي كانت تطل على الطريق، وراح يصرخ بصوت عالٍ:

- المرسال لن يسكت يا قرداتي، المرسال يعرف عنك الكثير الذي لا تُحب أن يطلع عليه أحد، أنا اليوم لم آت إليك بصفتي مرسال الفتاة التي تبغضها من كل قلبك، أنا مرسال كل الذين يبغضونك ويبغضون أفعالك الوقحة، أنا مرسال كل الذين يكرهونك ويكرهون أمثالك.

مال إلى الأرض وانتشل حجرًا كبيرًا راح يلقي به بقوة إلى الأرض مرة ومرات كي يتفتت، وأخذ بإصرار جم يضرب واجهة البناية بالأحجار المفتتة وهو يصرخ صرخة عالية مدوية:

- رحاب أين رحاب يا قرداتي، المرسال لن يسكت، المرسال سوف يبوح بكل شيء.

وقرب مطلع الفجر كانت أم الزين مازالت جالسة إلى عتبة الباب، وقد ركنت برأسها إلى حافة الباب الخارجي الموارب، وقبضت بيديها على صرة الملابس الموضوعة في حجرها، وفجأة أحست بشيء ما ثقيل يسقط في قلب حارة المنسي وكأنما من السماء، وصوت موتور قوي لسيارة يتوقف مع فرملة شديدة في

قلب الحارة، وأقدام كثيرة لعمالقة تدب على الأرض، ولكمات قاتلة وصرخات لا تنبعث إلا من موتى، فهبت مستيقظة من نومها وهي لا تدري أأفاقت من نومها حقًا أم أنها مازالت ترى كابوسًا مزعجًا، راحت تدفع بقلبها الخفقان الأيدي بعيدًا عن لا شيء، وتواريه بجسدها، تتلقى عنه اللكمات، الركلات، وبصقات الشياطين الملعونة، كانت تصرخ وتلعن من يفعلون ذلك، لحظات وهمد الجسد بين يدي جسدها المجمد، وسكنت أنفاسه التي كانت قبيل لحظات كعاصفة زمهرير، سمعت صوت موتور السيارة وهو يدور وينطلق هادرًا ويخفت مبتعدًا شيئًا فشيئًا، وضعت يدها المرتعبة فوق صدره العريان الناتئ الضلوع والذي لم يكن يرتفع وينخفض كما تمنت، مدت طرف أنملها المشقق الجلد إلى طاقتي أنفه اللتين عزفتا تمامًا عن استنشاق الهواء أو إخراجه من الرئتين، ولكن كان فمه مشقوقًا عن ابتسامة عريضة دافئة، هكذا أخبرتها يداها اللتان كانتا تملسان برفق على صفحة وجهه البارد الوسنان.

(١٧)

نظر سليط طويلاً في اتجاه جثمان أخيه المسجى في منتصف ساحة أرض الدار الترابية، كانت أم الزين منكفأة بكل جسدها على صدر ربيع الملفوف في ملاءة بيضاء وهي تبكي بلوعة ومرار شديدين على حبيب العمر، وفلذة الكبد، وأخيرًا تنهد سليط تنهيدة أسى لم يرتح لها قلب أم الزين، والتي قالت له بنبرة حاسمة:

- أخوك قتل، ولابد من الثأر له.
- بل قتل نفسه يام الزين.
- إخرس، المجرمون قتلوه، والأستاذ ربيع لم ينتحر.
- الأستاذ؟!!، هه الأستاذ كان مدمنًا على تعاطى المخدرات والبرشام وكل ما يخطر وما لا يخطر على البال.

راحت أم الزين تكشف الغطاء عن ابنها لترى سليط آثار علقة الموت الرهيبة التي أودت بحياته، مجموعة من المجهولين المجرمين نزلوا من سيارة كبيرة ارتجت حارة المنسي على أثر دخولها رجًا عنيفًا، التفوا حول ربيع كالكلاب الشرسة وأوسعوه

ضربًا مبرحًا، كانوا يقولون له أنه تطاول على أسياده، على أكابر البلد، أحدهم ضربه بآلة حادة على أم رأسه، وهي الضربة التي قتلته، لم يرحموه ولم تشفع له عندهم توسلات أم الزين وصرخاتها الهستيرية، لم يغثها أحد من أهل الحارة والحى، صرخت بأعلى صوتها كالمجنونة:

- مالك يا بلد راح مني الولد.

- هيه هذا جزاء من يمشي في سكة الإدمان.

قالها سليط وقد استدار بغية الانصراف خارجًا، فهبت الأم لاحقة به وهي تكاد تتعثر في رفاة ابنها، ولأول مرة لامست يداها منذ زمن بعيد جسد ابنها البكري من الخلف وقالت له وعلى غير المعتاد منها بنبرة راجية متوسلة:

- باللّه عليك إن كنت لن تثأر له ممن قتلوه فليس أقل من أن تأخذه ليدفن في أرضنا الطيبة في الصعيد.

- خذيه أنتِ، أوليس هو من أخذ حب قلبك كله لنفسه.

- سليط هل كنت تغار من أخيك؟!.

- ربيع ربيع ربيع، وكأنه ليس في الدنيا كلها غيره.

- لأنه لم يكن في دنياي سواه حقًا، كان شمسي التي تنير ليّ السبيل، كان عكازي التي أتكئ عليها، كان ابتسامتي التي حرمت منها منذ زمن بعيد، أما أنت فلقد كنت منحرفًا مجرمًا منذ نعومة أظفارك، وكانت أختكما سمر أنانية قذرة باعتني وباعتكما ولعنت كل شيء ورحلت إلى الأبد من أجل مصلحتها الشخصية.

نظر سليط مليًا إلى أمه، ودنا منها وقال لها بنبرة لم تخل من تشفٍ وضغينة:

- والآن راح عكازك بلا رجعة، ولابد أنك تبحثين عن غيره، فلِمَ لا تشنفين أذني العبد لله بكلمة طيبة من حنكك الحلو الذي يحتاج لمن يطعمه ويسقيه ويغنيه عن السؤال.

- اخرس، أخرج من بيتي أيها الحيوان العاق، الله يلعنك، الله يحرقك.

قالتها أم الزين صارخة، راحت تلطم الهواء مرة تلو مرات وهي تقصده، وتدفعه إلى خارج الدار بيديها فتصيبه تارة وتخطؤه تارات، وكادت وهي تلفظه من حياتها إلى الأبد تلفظ أنفاسها الأخيرة، سقطت أرضًا في البداية وهي تظن أنها النهاية، ولكنها

قاومت الموت بكل سطوته فمن غيرها لهذا الجثمان الطيب، فهو وإن كان صاحبه قد أدمن حقًا كما يقول أخيه سليط، بل كما أحست هي نفسها، إلا أنه ليس ذلك النوع من الإدمان الذي يقبل على تجريبه المرء حبًا ورفاهية وفضولاً وانخداعًا له، كانت واثقة من أن هناك من ورطه رغمًا عنه في ذلك الأمر بالخداع والغفلة، وأن القدر الرحيم قد أخفي عليها الكثير من أسرار حياة ابنها حتى لا تتعذب بما أصابه حيًا كان أم ميتًا، بل اليوم فقط أدركت كم هي نعمة أنها قد فقدت بصرها في اللحظة المناسبة؛ وحتى لا يقتلها ألم التطلع إلى أعز من فقدتهم في حياتها؛ والتي كانت تحبه كنفسها، بل أكثر من نفسها ومن أي شيء آخر في الوجود، والذي لم تشك لحظة أن الإدمان هو الذي قتله كما قال سليط العاق، بل الفوقان من الغفلة المقيتة.

ومن غير تفكير هرولت إلى جسد ابنها وراحت تقبله بحرقة ومرار بالغين ولكأنما تُغسِّلَه بدموعها الخفية، وبالكاد أحكمت تغطية جسده العملاق بالملاءة البيضاء القصيرة، وبدت كمن يشيع ملكًا إلى ملائكة وقد راحت تنبش بطاقتها القصوى في أرض ساحة الدار الترابية، كان عملاً شاقًا مضنيًا أن تحفر حفرة عميقة تسع مثل هذا العملاق المسجي بالقرب منها، ومع إطلالة شمس نهار يوم جديد كانت توارى جسد

ابنها الثَرَى وهي جامدة لاتبكِي كتمثال خشبي، وأمسكت بحلة ألمونيوم وأخذت ترشرش الماء بيد وتساوى تراب الأرض بيدها الأخرى، ثم ارتكزت على مؤخرتها واندفعت مرتمية إلى زاوية حائط الدار وهي تنتحب وتولول كالمجنونة، كانت لا تدري لماذا فعلت ما فعلته، وهل كان ينبغي عليها وبعد أن خذلها ولدها البكري أن توكل أمر الثأر كله للحكومة، ولكن أي حكومة تلك التي ستقوى على أسياد البلد وأكابرها، أو لم يقل قتلة ابنها أن من ينسى نفسه ويتطاول على أسياده فجزاؤه الموت غير مأسوف عليه، ولكن هل يجوز أن يقتل أي إنسان هكذا بغير ذنب أو محاكمة عادلة، أم أن الفقر وقلة الحيلة وانعدام الجاه والسلطان والنفوذ يتدنى بدرجة إنسانية الفقراء إلى هذا الحد المخجل، وهل سيفلت من فعلوا ذلك من العقاب؟، نعم أنهم لن يفلتوا من عقاب الله الأخروي، ولكن ماذا عن عقابهم الدنيوي، هل سيفلتون منه، وهل ستقبل أن يكون ابنها كلب وراح وليس أكثر من ذلك، مجرد كلب حقير دهسته سيارة فارهة على قارعة الطريق، الكلاب تستسلم وتتدثر بمأساتها وتمضي خانعة لكونها كلاب لاعقل لها، بل أنها وإن نست فلن تنسى تلك الكلبة المسعورة التي رأتها في صباها على سكة الزراعية ببلدة أرمنت الحيط، وعندما دهست كارتة أحد أكابر البلد جروها الصغير وقتلته، عوت الأم عواءً طويلاً حزينًا متصلاً، وراحت

تطارد قاتل جروها بإرادة غير عادية حتى لفظت أنفاسها الأخيرة برصاصة في قلبها، وضحكة مستهترة، ودخان كثيف كان يتصاعد من سيجار ابن الأكابر راكب الكارتة، وهنالك جن جنون المرأة، وأحست بأنها تختنق وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة، وهي لا تصدق أن تكون الكلاب أكثر إرادة ونخوة وإحساسًا بذاتها وحقها في الحياة من البشر أنفسهم، فهبت متحاملة على عكازها الخشبي منفلتة بعفوية اللحظة الغاشمة إلى الطريق، تضرب في الأرض على غير هدى، ومن غير خطة متمردة على التراتيب القدرية راحت تصرخ بكل ما في جعبتها من قدرة على الصراخ والعويل:

- ولدي.

ظلت أم الزين لأيام طوال تجوب شوارع وطرقات القاهرة القديمة والجديدة، كانت تريد فقط أن تصرخ، وأن تبوح بكل ما بداخلها من أحاسيس وآلام، وأن يسمعها أحد، أي أحد، ولم تأبه في أوقات كثيرة بسخرية المارة، وكذلك من مجموعة الشباب والفتيات السكارى العابثين والذين قطعوا عليها السبيل بسيارتهم الفارهة الكبيرة، وراحوا يشدونها عنوة وبلا حياء من أطراف ملابسها السوداء المتسخة وعكازها، ويجردون رأسها الشائب من الطرحة البالية، وأحدهم يقول بسخرية أشبه

بطعنة سكين حاد في القلب وهو يجرد كتفيها المحنيين من الشال القديم:

- ما أروع هذه الحاجة بالبيبي دول.

صرخت أم الزين مستنجدة بالله وهم يضحكون بالأجساد والأشداق:

- اللهم عليك بالمتجبرين، بالظالمين، بالغافلين.

وبعد فترة من العبث الصاخب، والضحكات الماجنة قالت إحدى الفتيات وهي تخلى أيدي الشباب عنها:

- اسمعي يا حاجة نصيحتي لكِ بدلاً من الولولة هكذا في الطرقات، يمكنك أن تختصري الطريق على نفسك وعلينا، وأن تفعلي مثلما فعل محمد بوعزيزي اليوم في تونس.

انطلقت السيارة بسرعة الريح، وضحكات ورؤوس تدور مع كئوس تقرع بعضها البعض، ولم تكن أم الزين تعرف من هو محمد بوعزيزي هذا ولا ماذا فعل، ولم تفهم مغزى ما قالته لها فتاة أخرى قبل أن تنطلق سيارة أولاد الات منصرفة بسرعة الريح الأهوج:

- ديدي تقصد احرقي نفسك بجاز وسخ.

لم يثن ذلك من عزم سيدة عجوز خرجت في ليل عينيها السرمد تتخبط في طرقات القاهرة المزدحمة، ولم تكن الدنيا كلها من الأشرار، الطيبون كانوا يلقون إليها بالطعام من الشرفات، وينثرون عليها قطرات الماء وقاية لها من حرارة الشمس، وكانت هي تُلقي إليهم بكلماتها وصرخاتها الموجوعة الحزينة:

- ولدي يا بلد، بلدي يا ولد.

راحت لأسابيع طوال تتنقل في وسائل المواصلات المتنوعة، وتفترش الأرض وسط غابات من السيقان البشرية، وكان السائقون يدعونها تفضفض بما في جوفها كما كانوا يدعون الباعة الجائلين المساكين، وذات مرة ركبت قطار بحري وطافت بأحزانها وكلماتها التي تحيي الموتى في ظلمات القبور، وجالت في كل البلدان والقرى والنجوع والكفور، ومدن الساحل وإسكندرية ومطروح والسلوم، وجابت الأعطفة والأزقة والشوارع وأسطح المنازل والقبور، ودخلت المساجد والكنائس، وافترشت أرض قطار الصعيد القشاش، تصرخ في الصعايدة كما صرخت في البحاروة:

- بنت السلطان أعجبها واحد غلبان، قالوا لا هذا ليس بإنسان، الفقير والمسكين والغلبان أف لهم وألف أف، يا مولانا السلطان بنتك يلزمها واحد من الأعيان، واحد من الأسياد عنده عبيد وأطيان، وعمارات وأموال قارون، وجاه ومُلك نبينا سليمان.

ثم هبت واقفة وهي تصرخ والقطار يهتز بها هزًا جنونيًا:

- لا الغلبان إنسان ليس حيوانًا، دم ولحم وإحساس ومشاعر، الغلبان قال العيل أعمى في بطن امه، غير دريان مَنْ تحمله، وأين ستضعه، وعند مَنْ، يا مولانا، ياباشوات، يابهوات، لو كان الأمر بيدي لركبت بطن أم أخرى غير بطن أمي، ولأتيت لابنتك راكب رهوان الملوك، ولكن الذنب ليس ذنبي، وآه لو قسمتي قسمتهم، وقسمتهم قسمتي، كان أحس السلطان بما يحس به الغلبان، الشقيان، العرقان، هيه الإنسان.

سكتت أم الزين طويلاً ثم انفجرت في البكاء وقالت صارخة صرخة تجاوب معها الصدى وراح يرددها في خشوع جم:

- قتلوه يابلد، المجرمون قتلوه لأنه تطاول على أسيادنا الأسياد، لا يا بلد إلا الولد، لا يا بلد كلنا إنسان، يا أخي يا أعمى البصر والبصيرة، فكر من يفترش رصيف قصرك، ومن ينام خلف أسوار حدائقك التي تشبه الجنة، أنتم أجل أنتم أيها الفقراء يامن بنيتم الأبراج العالية وسكنتم أرصفتها.

وطالت رحلة أم الزين وقصرت أيامها في الحياة، كان فمها لم يخل بعد من الكلمات، ولكن عداد دقات قلبها كان يوشك على النفاد، مضت متوكأة على عكازها وهي تصرخ بما تبقى لديها من قدرة على الصراخ المتلاش:

- يا بلد إلا الولد.

كانت قد وصلت إلى المحطة الأخيرة كما ظنت، ارتمت مفترشة الأرض وهي تتحسس بيدها جذع شجرة الكافور الباسقة، جلست في ظلها كما كانت تفعل وهي طفلة صغيرة لتتقي حرارة شمس بلدتها الحارقة والتي اشتاقت إليها كثيرًا، وتاقت أيما توقان لأن تموت وتختلط رفاتها بتراب أرض أرمنت الحيط الطيبة، كانت كلما طرفت عيناها أحست أنها الطرفة الأخيرة لها في الحياة، وأن الأنفاس المحتوشة في صدرها تتناقص تنازليًا، ومعها يرتفع تصاعديًا عداد رغبتها في مفارقة حياة لم تعد بعد تضم بين دفتيها روح ابنها الزكية، روحه كانت هائمة هناك عند بارئها، استغرقتها سنة من الذكريات الكثيرة، فاضت الدموع في عينيها، رفعتهما لأعلى ولكأنما تستجدي ربها أن يرسل إليها ملك الموت، ولكنها أفاقت فجأة على حقيقة أن الأجساد قد تموت حقًا ولكن الأرواح تظل ثائرة، الناس يقولون أنها سبقت بروحها جسد المرأة العجوز التي تتوكأ على عصاة متآكلة الكعب، والتي كانت تبكي بلوعة شديدة عند ضريح السيدة زينب، وقد تشبثت يداها بالحاجز المعدني الذهبي المشغول على الطراز العربي الأصيل، ويد ما ناعمة ملساء كانت تمسح برفق على يدها المشققة كقطعة من العجين

الناشف، والمعلقة بالحاجز المعدني المهتز إستجابة لحركاتها الإرتعاشية، فالتفتت ناحية صاحبة اليد وقلبها يخفق خفقانًا رهيبًا متسائلة:

- مَنْ؟!!.

- بغي تابت إلى الله توبة نصوح.

- صوتك يا بنتي ليس غريبًا عليَّ؟!.

لم تسمع أم الزين بماذا أجابتها بالضبط الفتاة ذات قسمات الوجه الضاوية، كانت أصوات مَنْ يسيرون خلفها قد طغت تمامًا على كل شيء في الوجود وبدت صاخبة فوق ما يتخيله البشر، وكانت الطرقات كلها مغلقة، وكان الاتجاه إلى ميدان التحرير إجباريًا.

تمت

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر